



AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY

22 MAR 1973

Tel. 260456

892.71

A 158 Ya A

لِيَا الْخَمْسِينَ مِيعَ الْجَمْعِ

تأليف

محمد عبده عزام



دار الكاتب المصري

القاهرة

ع قنطرة الدكة

الطبعة الأولى . . . مارس ١٩٤٨

سمعت هذه الأحاديث من نفسي
في ليالى السهاد
حيث يعيش المهموم
في دنيا من الظلام والأوهام

فهرس

صفحة

- ١ — حديث الرسالة ٧
- ٢ — قصة الأصل والنسب ١٤
- ٣ — حياة المديح ٣٤
- ٤ — في مصر مع عياش ٥٣
- ٥ — في خراسان مع ابن طاهر ٦٨

حديث الرسالة

قال أبو تمام :

نعم يا صديقي فهذه أوراقك الكثيرة التي كتبتها عني ، وإن ما كتبتَه
لجميل حقاً ، وإن فيه لأشياء أعجبتني . وإني لأعلم أني سببت لك كثيراً
من الضيق والشقاء ، ولكني أعلم أيضاً أني أسعدتك في أوقات رأيته
فيها تنسى ضيقك وشقاءك وتسعد بشعري ومعانيه ...

وها أنت أخيراً كتبت عني ما كتبت ، وقطعت معي من حياتك
ما قطعت ، فهل تراك عرفتني حقاً ؟ وليت شعري أيما كان أعرف بصاحبه
من الآخر ! أتذكر قول أستاذك في كتابه « مع المتنبي » : « ولست أشك
أن الشعر مرآة لشيء ، لكني لا أدري أهذا الشيء هو نفس الشاعر
أم هو شيء آخر غيرها . ومهما أغل في تصديق هذه النظرية وفي الثقة
بنقد النقاد وبحث الباحثين فلن أتجاوز أن أقول : إن نقد الناقد إنما يصور
لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر أو الأديب
الذي عني بدرسه ، وإذن فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات
من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب ! »

لست آسفاً لأنك اخترتني شاعرك ، ولكني ربما كنت آسفاً لما
أخذت به نفسك من هذه القيود المنهجية التي جريتم على اصطناعها
في مجوثركم ... لقد كنت أراك تقرأ شعري وتغنيه في نفسك ، وتحس

قلبي وما فيه من آمال وآلام ، ولكنك ما تكاد تمضي قليلا في هذا الاتصال بينك وبينى حتى يفسد عليك أمرك ، ويقطع عنك غناءك ، ويباعد بيننا ، هذه القيود المنهجية وهذه المنفعة العلمية التي دفعتك كما تدفع غيرك من الباحثين لتقف عند هذا البيت أو ذاك من شعري ، فترى رأياً في نشأتى أو لون تفكيرى ، أو لتستدل به على طريقة أدائى ، أو لغير ذلك من هذه الأغراض التي تقرأون الشعر من أجلها ... ولكم كنت أشفق عليك يا صديقى وأشفق على نفسى أيضاً حين كنت أراك تنحى ديوان شعري جانباً في سرعة ولهفة لتمسك بالقلم وتكتب ما عن لك من رأى في هذا الباب أو ذاك من أبواب كتابك ...

أتذكر يوم عدت حزيناً متخاذلاً من عند هذا الأستاذ ؟ ... إنك لم تكذب تقرأ له شيئاً من رسالتك حتى بادرك بقوله : أراك سرت على طريقة الأستاذ فلان ، فان كنت يا صاحبي تريدنى مشرفاً على رسالتك فلا أقل من أن تسير على طريقي ... وسقطت بعض الأوراق من يديك حين سألته وما طريقتك ؟ فأمسك بالقلم وكتب لك « عناصر الموضوع ! » أى والله عناصر الموضوع كما كان يفعل بك في المدرسة الابتدائية والثانوية في حصة الانشاء ... وتعود إلى بيتك وأنت لاتكاد تعرف الطريق إليه ، حاملاً تحت إبطك حملاً ثقيلاً جداً من الأوراق ...

ولا سبيل إلى رقيق المادى إلا بهذه الدكتوراه ، ولا سبيل إلى الدكتوراه إلا اذا كتبتها على طريقة هذا الأستاذ الذى أسلمتلك المقادير إليه !

كنت معك حين ذهبت إليه فرحاً مستبشراً ، وكنت معك حين عدت من عنده حزيناً مبتئساً ، وكنت معك حين ألقيت ما كتبت واستسلمت لحزن بالغ عميق . ولكن الابتئاس لم ينفعك ، فلا بد لك من الرجوع إلى « عناصر الموضوع » فالوقت يمضى والأيام لا تنتظر ، وزملاؤك أصبحوا جميعاً دكاترة .

وتثقل عليك الحياة ، ويشتد سخطك على الأيام ، وتنتظر كأن أمور الجامعة ستستقيم لك كما تشتهي نفسك ، ولكن هيهات ذلك يا صاحبي هيهات ! فقد انقضت سنوات ولا زال مفروضاً عليك أن تكتب هذه الرسالة وتنهج فيها هذا المنهج المفروض عليك ! كنت معك في هذا الصراع المر ، وكم كنت أشفق عليك حين تعود إلى هذه الأوراق القديمة التي كتبتها عنى قراها كأنها لا فائدة منها لأنك مضطر أن تخططها من جديد وفق هذه الخريطة التي شرطتها عليك المصلحة !

ولو أنك رأيتني وأنا بجانبك أنظر فيما تكتب عنى لعرفت أنى كنت في بعض الأحيان أقرأ ثم أبتسم ، راضياً أحياناً ، ساخراً أحياناً أخرى ! ويل لك يا صديقى ! فقد يظهر أنك لا تجيد مناهج البحث ولا تحسن ما يجب أن يحسنه العلماء الباحثون من التبويب والتقسيم ، ومن إخضاع الشعر ليكون شاهداً على هذا الرأي أو ذاك في سيرة الشاعر وفننه ! ...

صديقى لقد ضحكت كثيراً حين رأيتك تشتري كمية لا بأس بها من هذه الجرازات التي تتوفر في مكاتب العلماء والباحثين ... ورأيتك وأنت عائد بها إلى بيتك وكأنك تقول لنفسك : الآن أصبحت عالماً ... سأضع هذه الجرازات أمامى ، وربما اشتريت لها صندوقاً خاصاً بها كصناديق الجرازات التي يملؤها العلماء بأفكارهم فيضعون كل فكرة في خانة !

ها أنت يا صديقى رتبت جرازتك وفق عناصر الموضوع المكتوبة على ورقة الأستاذ ، أو المكتوبة في الحقيقة على هذه السبورة السوداء القديمة في السنة الثالثة الابتدائية ... وانظر في تلك الجرازات التي جعلتها كنزك البمين ، والتي قسمتها وقسمت حياتى وشعرى وفق أقسامها ، فأضحك لكنى أعود فأشفق عليك وألتمس لك العذر ، لأنه بغير هذه الطرق العلمية المنهجية المنظمة ، أو هذه الـ Méthode كما يحلو لبعضهم أن يقولها ، لن يستقيم لك البحث الذى يقرك عليه الأساتذة ، وتجزك عليه الجامعة ...

ومع ذلك فليس من حقى أن أقول لك هذا فأفسد عليك أمرك

وربما أضعت مستقبلك . فامض يا صديقى فيما أنت فيه ماض ، وقسم حياتى وفنى كما تشاء ال methode عندكم ، وتخير لها من الأسماء ما شئت ، وكذلك مراجعك فاستكرم منها وذيل بها دائماً صفحات كتابك ، فهى شاهد على أنك رجل علم وأستاذ بحث .

معذرة يا صديقى فنحن الشعراء كثيراً ما نتجنى على الناس وعلى الحياة ! وإلا فلا بد مما ليس منه بد ، فمن حقلك على نفسك أن تروضها على شئ من النظام ، وأن تتبع منهج هذا الأستاذ العظيم ، وأنا متسامح فى حقى وحق التاريخ ما دام هذا المنهج سيسبب لك بعض الخير !...

ها أنت أخيراً قد كتبت رسالتك بعد صراع مرير عنيف ! وهى قد جاءت فى فصول أربعة رئيسية ، تحت كل فصل منها كثير من الأبواب . إن هذا الفصل الأول الذى كتبتة عن البيئة فصل لا بأس به ، فقد أحطت إحاطة واسعة ، ونظرت نظرة شاملة ، وصورت بيئى العامة وبيئى الخاصة التى أثرت فى سيرتى ، ومظاهر هذا الأثر فى شعرى واتجاهى فى الحياة ... أما هذا الباب الذى كتبتة عما دفعنا إليه جميعاً — أعنى شعراء العربية — دفعاً قوياً فى اتجاهاتنا الأدبية ، والعلاقة بين هذا الدافع الأدبى القديم وبين بيئتنا الأدبية الجديدة ، فهو باب أعجبنى كثيراً .

على كل حال أصبح من حقلك يا صديقى أن تدعى أنك عرفتنى وكشفت عن حقيقتى كما يكشف صاحب الحفريات عن دمية قديمة عثر عليها بعد تنقيب وبحث ، أو ربما عثر عليها مصادفة ودون عناء ! فليس فى كل ذلك إلا الخير لنفسك وللناس وللتاريخ وللعلم ... نعم وللعلم أيضاً ما دمت أخضعتهم حياة الشعراء وشعرهم لطرق العلم والاستنتاج ! ولست أنكر عليك يا صديقى هذه القيمة الأدبية العظيمة التى حصلت عليها من قراءة شعرى والنظر فى كتب التاريخ والأدب من أجل سيرتى ، حتى استطعت أخيراً أن تضع عنى مؤلفاً وتصوغه هذه

الصياغة. شكراً لك! فقد كان في كل هذا عناء أضناك ، وربما ذكرت به ، أو ربما انتفع به بعض المتأدبين ... وإنما أنتم في الحقيقة - معشر الباحثين في الأدب - شركاء لنا في محنتنا ، وممثلون في جوقتنا التي مافتتت منذ القدم تسمع هؤلاء الناس وترىهم ما في الحياة من نزعات تنزع إليها القلوب ، وأحلام تهفو إليها النفوس ، وصور تعبر عما في الحياة من جمال ، وما فيها من خير وشر ، وما فيها من سعادة وشقاء . اخترتم حرفة الأدب كما اخترناها من قبل ، وكلما سيختارها الناس من بعد ، فأما نحن فقد أردنا أن نعبر عن نفوسنا خلال هذه القيود الشعرية ، وأما أنتم فقد أردتم أن تعبروا عنا خلال هذه القيود المنهجية ! وهكذا سرنا في طريق واحدة ، واصطنعنا حرفة واحدة ، ولست أدري أكانت هذه الصناعة مجرد مصادفة أم إننا اخترناها لشيء آخر ... وأيا ما كان الدافع فقد قضى الأمر ، وسعدنا أو شقينا بهذه المثل والمعاني التي أحلناها نفوسنا ، وعشنا طول الحياة عليها ومن أجلها !

أي صديقي ! لا يحزنك قولي هذا ، فانا أعلم ما قاسيت من أجلى ، وأنا أعلم أيضاً أنك أحق الناس بما تطلب من وراء كتابك عني ... إنه ميراثك الذي خلفه لك شاعرك بعد إذ لم يخلف لك أباًؤك شيئاً ! وإنما حديثي إليك حديث صديق يحب الخير لك ، ولا يجد كلفة بينه وبينك . هل أحدثك عن نفسي بشرط ألا يكون لهذا الحديث أثر في كتابك ؟ ضع هذه الرسالة العلمية في درج مكتبك الآن ، وتعال نتحدث دون كلفة أو مشقة ، ودون أبواب وفصول ، ومصادر ومراجع ، فما أكثر ما فقدناه حين تكلفنا في حياتنا المادية والشعورية ... إنس الآن يا صاحبي هذه الاجازة العلمية التي تقدم هذا الكتاب لها ، وإنس هذا الامتحان الذي سيعقد لك أو لا يعقد ، والذي أضج مضجعتك وأفسد حياتك ... لكان صورته لا تفارق خيالك ! ... خمسة من الأساتذة الجللة ! أليس كذلك ؟ كأنى والله أراهم كما تراهم أنت يدخلون هذه القاعة الفخمة الفسيحة تتقدمهم الهيبة ويحفهم الوقار ... وها هي

القاعة تدوى بتصفيق حاد يتصل بعض الوقت ، ولكن الأساتذة الجلة
يمضون إلى مقاعدهم دون أن يحفلوا بتصفيق لأنهم كالرهبان الذين
لا يحفلون بشئ غير مرضاة الله ؛ أستغفر الله — أردت أن أقول غير
مرضاة العلم ! — نعم ولكأنى والله أراك وقد بدأ كبيرهم يعرف الحفل
أنك كتبت عنى بحثاً تريد أن تحصل به على درجة دكتور ، فعليك أن
تلخص البحث ليسمع الحضور ماذا قلت ، وليروا كيف تهاجم فترد
المهجوم ، وكيف تخرج فتخرج من الحرج ... أراك واقفاً أمامهم لاتدرى
كيف تبدأ حديثك عنى وكيف تنهيه ... ولكأنى أسمع ما يبحث به
صدرك فى ذلك الوقت وما يخفق به قلبك ... ألم تصطحب سنوات عشر
عرفتك فيها كما عرفتني ؟ أنا أعلم ما تحمل نظراتك إلى نفسك فى مثل
هذا الموقف ... أنت رجل غلبتك العاطفة ، واستبد بك الخيال . أنت رجل
ساخر من كل شئ وأنت مصاب بفراط الحس ... وأنت مثلى فى بعض
الأحيان حين تنظر إلى الأشياء التى تثير المعانى فتراها متنافرة أو متلائمة ،
فتحب أن تطابق بين أطرافها ، وتوائم بين أضدادها ، وتجعل من هذه
المعانى لعباً عقلية تبدل من صورها وألوانها وأحياناً من حقائقها ! ما من
شك أن كل أستاذ من هؤلاء الأساتذة له معنى فى نفسك ، وهم مجتمعون
فى روباتهم الجامعية يؤلفون لوحة رائعة صبغها خيالك بألوان بدیعة ...
وها أنا أراك تستجمع نفسك وتبدأ حديثك ... يا له من حديث خطير
هذا الذى أعدت له الجامعة هذا الاعداد الفخم ، واحتفلت له بمثل هذا
الحفل ! مضى يا صديقى أكثر من ساعتين وصوتك متصل ونظراتك
زائغة ، ولبك مستطير ، ولب القوم مستطير كذلك ! ولكنك أخيراً تنهى
تلخيصك على كره منك لأنك لا تحب هذا التلخيص الموجز الرسمى ،
أو لأنك تخشى ألا يكون القوم قد فهموا عنك ... إنك أسرعت لأنك
رأيت أحد المحلفين ينظر فى ساعته ويهمس إلى جاره . انتهيت من الملخص
والحمد لله ، ودوى المكان بالتصفيق على عادة الناس حين يفرغ الخطيب
من خطبته ، وما تدرى أهم يصفقون لأنهم أراحوا منك أسمعهم أم لأنك

فتنتهم حقاً ... ثم يتبع هذا التصفيق سكون رهيب تحتبس فيه أنفاس القوم ، وتنظر عيونهم إلى تلك المائدة العالية المستطيلة التي جلس إليها هؤلاء السادة المحلفون وأمامهم علم الدولة ... وها أنت بدأت تتأهب لملاقاة سهام الهجوم في هذه الحرب الكلامية المصطنعة ... رأيت إلى أستاذك ذاك كيف أعلن توفيقك في بحثك ، وأثنى كثيراً على منهجك وكثرة مصادرك ! إن الفضل في كل ذلك يا صديقي لعناصر الموضوع ! ثم رأيت إلى هذا الأستاذ الآخر كيف شهر بك وبحثك وبطريقتك ومنهجك ؟ رأيت كيف صرت عالماً جليل الخطر عند أحدهم وطالباً بليداً قاصر النظر عند آخر في وقت واحد ! أ تستطيع إذن أن تضم هذين الضدين وتلائم بين هذين المتنافرين ؟ لك الله يا صاحبي فلقد طارت بلبسك هذه الصور المتنافرة ! ... وأخيراً يعلنون للناس أن الحكم بعد الدأولة ... ويخلون إلى أنفسهم بعض الوقت في هذه الحجرة المجاورة للمدرج الكبير حرف A ، وقد يبطئون عليك وعلى الناس في إعلان النتيجة ، فيزداد اضطراب قلبك رغم ثناء الناس عليك والتفافهم حولك ... وأخيراً يعود السادة المحلفون فيقف القوم على أطراف أصابعهم ، ويعلن كبيرهم أن اللجنة قررت منحك إجازة الدكتوراة بدرجة الشرف الممتازة ... تحقق الحلم إذن وأصبحت دكتوراً ... أباركك يا صديقي وأهنئك بهذا القلب الجميل ، فأنا سعيد حقاً حين أراك تنتفع بي في حياتك المعنوية وفي حياتك المادية كما انتفع غيرك بغيري من الشعراء والأدباء والفلاسفة ، وكل ينفع الناس بحرفهم وتجاراتهم ...

اطمئن إذن يا صاحبي ولا تحزن ، وتعال أحدثك بشيء من حياتي على هامش كتابك ، حديثاً لا يتبع منهجاً علمياً كما قلت لك ، ولا يعتمد على مراجع ، ولا يحمل نظريات جديدة تطلع بها على الناس ، إنما هو حديث حظ الحس فيه أكثر من حظ العقل ، ونصيب الاستطراد فيه ربما كان أوفى من نصيب القصد والايجاز .

قصة الأصل والنسب

قال أبو تمام :

وأخيراً ها أنت ترانى وتسمعنى فهل رأيتنى كما عرفت وتوهمت ؟
قلت كأنى أخاطبه أو أخاطب نفسى : نعم لقد صدق بعض ظنى
فيك ، فهم قالوا إنك أسمر اللون ، حلو اللمح ، دقيق التقاسيم ، فيك
ظرف وخفة روح .

— ثم ماذا ؟

— وقالوا إنك كريم النفس لطيف العشرة حلو الشائل .

— حقاً ؟ ثم ماذا ؟

— وأنتك سريع الخاطر حتى لتجيب المتكلم قبل كلامه كأنك عرفت
ما فى نفسه ...

— أكذا وصفنى بعضهم ؟ ثم ماذا أيضاً ؟

— وأنتك جعلت الشعر همك وأنفقت حياتك فى المديح .

— دعنا من الشعر الآن ، ماذا قالوا فى من صفات أخرى .

— كنت كريم النفس ، متلاففاً للمال لا تبقى على شيء منه ، على
كثرة ما أخذت من صلوات ، حتى لقد كنت أعجب لك حين كنت أراك
تنفق ما تنفق ثم تعود إلى شكوى الزمان والتبرم بالأيام ...

— ثم ماذا أيضاً ؟

— لا شيء بعد هذا إلا ما كان من سنك ونسبك .

— وماذا قالوا في سني؟

— اختلفوا في ذلك ، وأكثرهم يقول إنك اخترمت فمت قبل أن تبلغ الأربعين وذلك لشدة ذكائك وكثرة ما شددت به على نفسك في حياتك العقلية ... ولحياتك وموتك روايات أربع أذكرها لك .

ففي رواية أنك ولدت سنة ١٧٢ هـ وفي ثانية أنك ولدت سنة ١٨٨ هـ وفي ثالثة سنة ١٩٠ هـ وفي رابعة سنة ١٩٢ هـ . وفي وفاتك تقول رواية منها أنك توفيت سنة ٢٣٢ هـ وفي ثانية سنة ٢٣١ هـ وفي ثالثة سنة ٢٢٩ هـ وفي رابعة سنة ٢٢٨ هـ . فأنت ترى أن عمرك يتراوح بين السابعة والثلاثين والستين .

— أما مسألة سني فليست بذات خطر ، ولكني أحب أن تذكر لي ماذا قالوا في نسبي

— بعضهم قال إنك عربي صريح النسب في طي والبعض الآخر ...
— والبعض الآخر ذكر أني من أب رومي وأني دعي النسب في طي
أليس كذلك ؟

— نعم قالوا إن اسم أبيك كان تدوس العطار ، أو Théodosius رجل رومي ، وغيرته أنت إلى أوس بعد إذ صرت عربياً وانتسبت في طي ... ولا بد أنك سمعت شيئاً مثل هذا .

— نعم وكم قاسيت منه ! فكم شنع على دعبل ، وكم نال مني ابن المعدل ، وكم عيرني غيرهما هذا الأب النصراني وهذا النسب الدعي ! إنني يا صديقي أحملتهم جميعاً ... فنفوني عن أبي ، ونفوني عن قبيلتي ، وصاروا ينشرون في الناس شعراً يغمزني غمزاً مؤلماً في نسبي ، ولكني مضيت قدماً ، وأصبحت شاعر الخلفاء والأمراء أو شاعر الدولة الإسلامية .

ولحسن الحظ أو لسوءه لم يكن عندنا في قرينتنا تلك التي يقال لها جاسم ، بالقرب من دمشق ، شهادات ميلاد تثبت الاسم واسم الأب واسم الأم ، وتثبت الجنس والدين كما تفعلون أتم في هذه الأيام ... وإنما هو اسم يقال ، ونسبة تطلق ، وكنية أو لقب يعرف بهما الواحد منا بعد أن

يشتهر أمره ، فيطير الاسم مع لقبه وكنيته . وربما ترك بعض الناس أشعارنا وأخبارنا للخوض في أصولنا وأسابنا ، مدفوعين برغبة التشنيع ، على عادة الناس في كل زمان ومكان حين يستحبون الخوض في أعراض غيرهم ، لاسيما فيمن ينبغ فيهم ويشتهر بينهم ...

وأنت تعلم بما كان للنسب من أهمية في هذه الحياة العربية الإسلامية وحين اختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى في مدن الأمصار اضطرب الأمر وسهل الحصول على نسب ... نعم فلم يكن أمراً عسيراً أن يحصل الواحد منا على نسبة عربية أصيلة إذا كان ذلك ضرورياً لحياته ونجاحه ... وقد كان عندنا لهذا الأمر كما تعلم صاغة حذاق يصوغون لنا سلاسل النسب صياغة متقنة ، وقد تقصر حلقات هذه السلسلة أو تلك وقد تطول حسبما يدفع فيها من ثمن ! ... فان شئت فجدك الأول قحطان ، وان شئت فهو معد بن عدنان ... نعم ، وكان للنسب عندنا سوق سوداء فيها مساومات وفيها صفقات ، وحين يختلفون في السعر ، يشتهر الأمر ، ويذاع السر ، وتكون هذه الصفقة الراجعة أو الخاسرة موضوعاً خصباً لقول الشعر . أقرأت قصة حماد عجرد مع محمد ابن نوح كاتب اسماعيل بن علي ؟ أمر اسماعيل بن علي لحماد عجرد بخمسة آلاف درهم فمطله بها كاتبه محمد بن نوح هذا ، فصنع حماد شعراً خبيثاً صور فيه ابن نوح صورة منكرة إذ ادعى أن ابن نوح جاءه عاتباً لأن حماداً نفاه عن أبيه نوح في بعض شعره ، فتراضيا ، وطلب حماد من ابن نوح أن يذكر أباً من آبائه ليصوغ له نسباً ، فلم يعرف ابن نوح غير أبيه نوح ، فاضطر هذا الصائغ الخبيث أن يتوقف عن صنع السلسلة لأن حلقة واحدة لا تكفي !

قال حماد :

قال ابن نوح لي وقد أظهر بعض الغضب
أنت الذي نفيتني في الشعر عن نوح أبي ؟

فقلت لا لا ترمني	منك بمحض الكذب
ويحك لم أفعل وإن	كنت سقيم الحسب
لكنى كنت فتى	علامة بالنسب
فقلت لى : نوح أبى	فقلت : جاوز بأب
فلم تجاوزوه وفى	ذلك بعض الريب
فيا ابن نوح يا أبا الحل	س ويا ابن القتب
ومن نشا والده	بين الربى والكشب
يا عربى يا عربى	يا عربى يا عربى !

فهل رأيت يا صديقى كيف فعلت بماطلة ابن نوح؟ كم من المتأدبين ردد هذا الشعر الظريف وتندر به ! ولم ينفع ابن نوح أن كان عربياً أصيلاً حقاً أو غير عربى لأن هذه الصورة التى ابتدعها خيال حماد كانت أحب إلى نفوسهم من حقيقة ابن نوح وأصل نسبه ... إنه لون من ألوان الهجاء المليء بالسخرية اللاذعة والصور المنكرة فى حياتنا الأدبية ...

وكذلك فعل معى ابن المعدل ودعبل ومخلد بن بكار الموصلى حين داعبنى مثل هذه المداعبة . والحق أنه نال منى كثيراً بمثل هذا الشعر الخبيث ولم أستطع أن أجرى معه فى هذا الميدان ، لأن حياة المديح شغلتنى عن كل شىء ، ولأننى لو جاريته لنهت من ذكره ، ولأننى فى الحقيقة لم أكن أملك مثل قدرته على التندر وابتداع مثل هذه الصور الساخرة فى شعر يطير على الناس ... أنظر كيف صورنى الملعون صورة منكرة فسخر من أصلى ونسبى حين ادعى أنه يدافع عنى :

أنت عندى عربى الأصـ لـ مافيك كلام
عربى عربى أجأى ما تـرام
شعر فخذيك وساقيك خزامى وشمـام
أنا ما ذنبى إذا خالفنى فيك الأنـام

وأنت منك سجايا نبطيات لئام
وقفاً يحلف أن ما عرقت فيك الكرام
ثم قالوا جاسمى من بنى الأنباط خام
كذبوا ما أنت إلا عربى ماتضام !

وهكذا دافع عنى اللئيم ، فأثار الشك ثم نفاه ، وجعل الناس جميعاً يخالفونه ، وجعلنى أعين عليه ولا أساعده بسجايا نبطيات لئام ، وقفاً يحلف أن ما عرقت فى الكرام ، ولكنه أخيراً يكذبهم ويؤكد أنى عربى ... أرايت !

لا أحب أن أذكر لك كل ما قاله هؤلاء الخبثاء فى أبى وفى أصلى وفى نسبى الطائى ، ولا أحب أن أحاول إثبات عروبتي وطائيتي ، فأنا أعلم أنك ممن يداخلهم الشك فى أصلى ونسبى ، ولكنى أعلم أن هذا الأمر لم يغض منى عندك ... أليس كذلك ؟

نعم كان لا بد لى من هذه الطائية ... نشأت فرأيت بين جنبي نفساً لا تكاد تستقر ... فنزحت من هذه القرية الصغيرة المتواضعة « جاسم » إلى دمشق حيث كان يجب أن أعيش قبل كل شئ ... اشتغلت صبيهاً عند حائك ... ومن حقلك أن تظن الظنون بأسرتى تلك حين تركتني أغترب فى مثل تلك السن المبكرة لكى أحترف مثل هذه الحرفة المتواضعة ... ومع أنى لم أمض فى مثل هذا العمل إلا وقتاً قليلاً فإنه مع ذلك ترك فى حياتى أثراً ليس بالقليل ... فقد يخيل إلى أنى بعد إذ صرت شاعراً كنت أقد الشعر وأفصله وفق معانيه كهذه الثياب التى كنت أقدها ...

ثم قلقلتنى هذه النفس المتوثبة فأدتنى إلى بلدك حيث الجامع بالفسطاط ، وحيث حلقات الدرس وشيوخ الأدب والفقه واللغة . اشتغلت بسقاية الماء فى الجامع لكى أعيش وأسمع ما كان يتلى فى هذه الحلقات ... كنت أحس بنهم لعلوم العربية وخاصة الشعر ... كنت أريد أن أملا

نفسى وأصل إلى غاية بعيدة لم أتبينها تماماً عند أول أمرى ... فى هذه الجامعة الكبيرة أو هذا المسجد الجامع سمعت الكثير وقرأت الكثير ، إلى أن رأيت هذه الغاية البعيدة قد استبانة ووضحت . إنها الرغبة الملحة إلى عمل الشعر ، فقد يمكن أن أصبح شاعراً ... بدأت أستزيد من قرائته واتخذت الطريق إليه ، وصرت فى هذا الطور المهكر من حياتى أحلم بالآف الدراهم والدنانير تغدق على ، وصرت أتمثل عشرة السادة من الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والكتاب ، من أمثال ابن الزيات وابن أبى دواد وأبناء وهب وأبناء رجاء وهيد الطوسى وأبى سعيد الشغرى وأبى دلف العجلى وغيرهم ... ومن يدرى فقد يمكن أن يكون سبب اتجاهى إلى الشعر لأن الشعر تجد فيه نفس قلقة حائرة مثل نفسى مثابتها .

ثم عدت إلى الشام وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى الهجرى . وفى حمص اشتغلت معلماً لأولاد أسرة كبيرة هم أبناء عبد الكريم الطائيين . كان أبناء عبد الكريم هؤلاء عرباً خلصاً ، وكانوا من طى ، ووجدت من برهم بى وحدهم على ما حبينى فيهم ، وأظنك قرأت هذا رأى الذى قال إننى حين اتصلت بهذه الأسرة أنتسبت فى طى .

كان لهذه الحياة الجديدة أثرها فى سيرتى ، لأن هذه الوظيفة كانت تدفعنى إلى قراءة متصلة وخاصة فى الشعر ، فصرت أنتقى لتلاميذى من أبناء هذه الأسرة الطائية قصائد ومقطوعات من الشعر حتى أدانى هذا إلى إدامة النظر فى الشعر والجمع منه ، فاخترت فيما بعد هذه المختارات الستة التى ليس بين أيديكم منها فيما أظن إلا نقائص جرير والأخطل ، وإلا هذا المجموع المسمى بالحماسة وهو الذى عرفت به فقال بعض الناس أبو تمام جامع الحماسة ، وبالع بعضهم فقال أبو تمام فى حماسته أشعر منه فى شعره ، وقال ثالث إذا نسي أبو تمام الشاعر فلن ينسى أبو تمام جامع الحماسة .

وكنيت أثناء تدريسي هؤلاء الفتيان الطائيين أسمعههم بعض ما أصنع من شعر فيطربون له ويتحدثون به إلى آبائهم وذويهم ، فيكثر هؤلاء من برى والحرص على ، وربما طلب منى أحدهم أن أسمعه شيئاً مما قلت

فأنشده فيرضى ويحفزني إلى عمل الشعر ، حتى انتهى بي الأمر إلى أن صرت شاعر هذه الأسرة الطائفة .

وكان هناك بحمص شاعر مشهور أغرمت به كما أغرم به كثير من أهل حمص هو عبد السلام بن زغوان المعروف بديك الجن . كان ديك الجن شاعراً خفيف الروح بديع المعاني ، وكان فتي عريداً كثيراً ما يخرج إلى حوانيت الحمر خارج المدينة مع نخبة من أصدقائه وخلصائه ، فيعبثون ويتماجون ويتناشدون الشعر . وكنت أحب أن أشركهم في هذا العبث الذي يثير الحياة الأدبية ويعطي الشعر مادة خصبة لولا هذه الوظيفة التي كنت أشغلها ، فلم تكن تسمح لي بمثل هذا العبث . وكانت أسباب الحب والألفة توكدت بيني وبين ديك الجن ، وكثيراً ما شجعني على عمل الشعر حتى بلغ من حبه لي أن أهداني بعض شعره ونسبه إلى ... وكان إلى جانب ديك الجن شاعر آخر خبيث اللسان هو عتبة بن أبي عاصم الذي كان شاعر هذه الأسرة يمدحهم وينفق من برهم . وحين رأى أن شأني بدأ ينهب قال لهم : اخرجوا هذا عن بلدنا فليس يصلح أن يقيم معي في بلد . فلم يسمعوا له ، فبدأ يهجوهم ويهجونى ، وأخذت أرد عليه ، وربما استطعت أن أثبت له وأكيل له كيلاً بكيل ... أتذكر هذه القصيدة التي بدأتها بقولى :

أنبتت عتبة يعوى كى أشاتمہ الله أكبر أنى استأسد النقد ؟

وهل تذكر قولى فيها :

ما كنت أحسب أن الله يمهلنى حتى أرى أحداً يهجوہ لا أحد !

وهو البيت الذى عابنى عليه بعض المتعصبين على أو الذين لا يعرفون الشعر ... قالوا كيف يكون لا أحد يهجوہ ! فان كانوا أنصفوا فلم لم يعيبوا قول القائل يصف بخيلاً :

وجاء بلحم لا شىء سمين يقدمه على طبقى كلام !

فما هذا اللاشئ الذى قدم منه هذا المضيف للشاعر لحماً سميناً
على طبق من الكلام ! فلعمري إن هذا أبعد وأفحش لأنه نعت
ما ليس بشئ ... ولكنه مع ذلك شعر ، شعر بديع كان يجد الناس
فيه ما يحسون من لعب العقل وعبث الخيال ! ثم هلا سمعوا قول مسلم :

أمويس قل لى أين أنت من الورى
لا أنت معروف ولا مجهول

وعلى حسب منطقهم لا بد أن يكون مويس هذا — أعنى أبا المغيث
موسى الرافقى — أحد اثنين معروف أو مجهول ... أم تراهم نسوا قول
عباس الخياط :

لا شئ من ديناره أرجح

فما هذا اللاشئ فى الوزن حتى يكون أرجح من ديناره ؟ لكنهم
أرادوا أن يقيسوا الشعر بمقياس العقل والمنطق ويجعلوا لقضايام حدودا
من مقدمة تسلم إلى نتيجة كما فعل الآمدى فى نقده .
وما من شر يا صديقى يخلو من بعض الخير ، فلقد كان هذا الشر
بينى وبين عتبة بن أبى عاصم حافزاً لى قوياً على تجديد الشعر والمبالغة
فى معانيه . أقرأت قصيدتى التى هجوته بها :

الدار ناطقة وليست تنطق بدثورها أن الجديد سيخلق
دمن تجمعت النوى فى ربعاها وتفرقت فيها السحاب الفرق

قلت له منها :

يا عتبة بن أبى عصيم دعوة
أخرست إذ عاينتنى حتى إذا
وكذا اللئيم يصول إذ نأت النوى
شنعاء تصدم مسمعيك فتصعق
ما غبت من نظرى ظلت تشدق
بعده و يحول ساعة يصدق

غير رأى أسد العرين فهاله
أو مثل راعى الضأن أتلف ضأنه
حتى إذا ولى تولى ينهق
ليلاً وأصبح فوق نشز ينهق

كما قلت أيضاً :

إياك يعنى القائلون بقولهم
سر أين شئت من البلاد فأنى
إن الشقى بكل جبل يشنق
سور عليك من البلاد وخندق

وأظنك لاحظت أن شعري قارب من الاستواء والنضج في هذا الطور المبكر من حياتي ، فقد أطلت في هذه القصيدة الوقوف على الدار ، وأطلت التشبيب في مطلعها ، لأشوق القارىء ، أو لأستثير نفسه ، أو لأظهر استخفافى بمن أنا مقدم على هجائه ، وكذلك كان يفعل الخذاق من أصحاب الهجاء ، كما أظنك لاحظت بواكير هذا الفن الذى غالبت نفسه عليه حتى حذقته وصرت أعرف به ، فهذه الدار ناطقة وغير ناطقة ، وفي ربع هذه الدمن تجمعت النوى وتفرقت السحب . ولا أدري كم من الناس استطاع أن يرى النوى مجتمعة في هذه الدار ، وكيف وقعت منهم « السحاب الفرق » أى السحاب الذى يتفرق من معظمه بمنزلة الناقة التى تفارق الابل إذا أخذها الخاض ...

تري إلى أين ذهب بنا الحديث ؟ كنت أحدثك فيما كان لأبناء عبد الكريم الطائيين من أثر في حياتي ، وذكرت عتبة بن أبي عاصم ، وهل أستطيع أن أنساه أو أنسى ما قال في ؟

وكان طريق النجاح كانت مهياة لى في ذلك الوقت ، فقد نظرت فاذا بنو عبد الكريم في الشام يمنيون طائيون ، وفي مصر عياش ابن لهيعة الحضرمي ، والمطلب الخزاعي ، وفي خراسان حفص بن عمر الأزدي ، وفي أرمينية وأذربيجان أبو سعيد الثغري الطائي وصاحبه حميد

الطوسي ، فأتاح لي نسبي الأصيل أو المدعى — فسواء لدى هذا وذاك —
أن أقول لحفص بن عمر الأزدي تقرباً إليه :

متت إليه بالقربة بيننا وبالرحم الدنيا فأغنت عن الود
رأى سالف الدنيا وشابك أهله أحق بأن يرعاه في سالف العهد

كما أقول له منها :

فلم أغش باباً أنكرتني كلابه ولم أتشبت بالوسيلة من بعد
فأصبحت لا ذل السؤال أصابني ولا قدحت في خاطري روعة الرد

أنخت إلى ساحاتهم وجناهم ركابي وأضحى في ديارهم وفدى
إلى سيفهم حفص وما زال ينتضى لهم مثل ذاك السيف من ذلك الغمد

نعم يا صديقي فهذه اليمنية وهذه الطائية كانت قربي حسنة لهؤلاء
السادة من الولاة والقواد ... وكيف كنت أستطيع أن أفخر كما يفخر
شعراء العربية المتقدمون فأقول مثلاً :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم وسمى فيهم وهو كهل ويافع
سما بي أوس في السماح وحاتم وزيد الفتى والأشرفان وراتع ،

أو أقول :

لولا سيوف بني قحطان ما قرئت بين الصفا وحطيمي مكة السور
ولا أحل حلال الله في بلد من الأنام ولا حجوا ولا اعتمروا

نعم كيف كنت أستطيع أن أقول ما قلت من مثل هذا الفخر إذا لم
يكن لي مثل هذا النسب العريق وهؤلاء الآباء ؟
وإذن فلم يكن هناك بد من هذه اليمنية وتلك الطائية سواء كنت

يميناً أو غير يميني ، وطائي النسب أو غير طائي ... ولقد قرأت الشعر القديم كله وتأثرت به حتى لا أدري أكنت صادق حقاً أم غير صادق حين أقول لعمر بن عبد العزيز الطائي من أهل حمص :

سافر بطرفك في أقصى مكارمنا إذ لم يكن لك في تأثيلها سفر
هل أورك المجد إلا في بني أدد أو أجتني قط لولا طيء ثمر ؟
لولا أحاديث بقتها أوائلنا من السدى والندى لم يعرف السمر

لقد كان حقاً حراماً على نفسي أن أحرم مثل هذا الغناء العربي ، وهذه المعاني الجديدة في مثل قوالها القديمة المهيبة !
على أني لم أقف عند هذا الفخر والاشادة بالآباء على هذا النحو القديم ، بل تطرفت في عروبتى ، وغاليت في يمينتى وطائيتى ، حتى تعرضت للشر ، وحتى كانت هذه العصبية الغالية مثار الشك الذى كنت أفر منه . قل إنه المريب الذى يكاد يقول خذونى ، أو قل إنه مركب النقص كما تسمونه ، الذى يدفع إلى الأخذ من طرف بمقدار النقص فى الطرف الآخر ، أو قل إننى قد استبدى بهذا الشعر القديم فى كل شئ حتى تبديت وأنا حضرى ... قل ما شئت فى هذا وعلل بما أردت ، فقد لا أعرف أنا نفسى لهذا من علة ... أذكر أنى مررت يوماً بجماعة من الفتيان على قطرة سر من رأى وكانوا يستعرضون الخيل ، فلما رأونى قال لى واحد منهم وعرض بنسبى : يا أبا تمام أى رجل أنت لو لم تكن من اليمين ؟ قلت : ما أحب أن يغير الله الموضع الذى اختاره لى ، فممن تحب أن أكون ؟ قال : من مضر ، قلت : إنما شرفت مضر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ولولا ذلك ما قيسوا بملوكنا وفيينا كذا وفيينا كذا ، وفخرت وذكرت أشياء عبت بها نفر من مضر ، فمنى الخبر إلى القاضى أحمد بن أبى دواد - وأنت تعرف ما كان لهذا القاضى من سلطان - فقال : ما أحب أن يدخل على أبو تمام ،

فليحجب غنى . وعرفت أنه غضب غضباً شديداً ، فجزعت وأخذت أترضاه ، وقلت له قصيدتي التي تعرفها :

سقى عهد الحمى سبل العهد وروض حاضر منه وبادى

ولكن ابن أبي دؤاد لم يرض غنى ، فقلت له قصيدة ثانية :

أرأيت أى سواف وخدود عنت لنا بين اللوى فزود ؟

وأخيراً رضى غنى بعد شفاعته خالد بن يزيد الشيباني فقلت قصيدة
ثالثة هى الدالية المعروفة :

سعدت غربة النوى بسعاد فهى طوع الاتهام والانجساد

وفىها ذكرت شفاعته خالد .

ومن هذا الاسراف الذى كنت فى غنى عنه ، والذى قد يبدو للبعض أنه أقرب إلى التصنع والتمثيل منه إلى الحقيقة ، هذا المشهد الذى كان بينى وبين البحرى فى بيت أبى سعيد الشغرى . فقد جاء البحرى ليلقى أبا سعيد أول لقاء بقصيدته « فىم ابتدارك السلام ولوعا » وكنت وقتئذ مع أبى سعيد بمرو ، فأخذ ينشده قصيدته هذه حتى وصل منها إلى قوله فى وصف حاله :

فى منزل ضحك تخال به القنا بين الضلوع إذا انحنى ضلوعا

فما كدت أسمع هذا البيت حتى نهضت واقفاً وأقبلت على البحرى مسروراً به ، وضممته إلى وقبلته فيما بين عينيه ، وصحت : يا أبى الله إلا أن يكون الشعر يميناً ! وجعلت أفخر باليمن وبطى ، وأنهم ينبوع الشعر ... وسر أبو سعيد لذلك ، وأكمل البحرى قصيدته ، وأعطاه أبو سعيد جائزة لا بأس بها ، لكنى لم أقنع حتى أضعها له ، وجلسنا نحن الثلاثة فما لبثت أن وجدتني أقول للبحرى : نعت إلى نفسى !

قال : أعيدك بالله من هذا القول ! — قلت : إن عمرى لن يطول وقد نشأ فى طى مثلك ... أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شيبه وهو بين رهطه يتكلم فقال : والله يا بنى لقد نعى نفسى إلى إحسانك ، لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله ... فقال البحتري : بل يبقيك الله ويجعلنى فداك ... !

وأكثر من هذا مغالاة فى الظهور بمظهر العربى الأصيل أنى ارتديت زى الأعراب فى مستهل حياتى . كان ذلك فى بغداد عند ذهابى إليها لأول مرة ، وكنت عرفت أن بعض الشعراء المشهورين يجتمعون كل جمعة فى جامع المدينة فيتناشدون الشعر، ويعرض كل واحد منهم على أصحابه ما أحدث بعد مفارقتهم فى الجمعة التى قبلها ، أذكر منهم : دعبل الخزاعى ، وعلى بن الجهم القرشى ، وأبا الشيص ، وابن أبى قيس ، والحاذرى . فأردت أن أتعرف إليهم فجاست بين الناس الذين التفوا حولهم ، وقد ارتديت زى الأعراب وجلست على هياتهم . فلما فرغوا من إنشاد أشعارهم قلت : قد سمعت إنشادكم منذ اليوم فاسمعوا إنشادى . فانتبهت الجماعة وقالوا لى : هات . فأنشدت قصيدتى « نجواك عين على فجواك يا مذل » ومررت فيها حتى انتهيت إلى قولى فى مدح المأمون :
تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل

وعند ذلك رأيت وجه أبى الشيص قد تغير ، وعقد خنصره ، وصار يتبرم بمكانه ، ومضيت فى القصيدة إلى آخرها ، وما كدت أفرغ منها حتى استنشدتنى الجماعة شعراً آخر ، فأنشدتهم قصيدتى التى أولها :

دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الامام

ولما فرغت منها طلبوا المزيد فأنشدتهم قصيدتى :

قدك اتئب أربيت فى الغلواء كم تعذلون وأتم سجرائى ؟

حتى انتهيت إلى آخرها ، فقال لى بعضهم : لمن هذا الشعر ؟ — قلت

لمن أنشدكموه — قال دعبل : ومن تكون ؟ — قلت : حبيب بن أوس الطائي — فقال أبو الشيص : تزعم أن هذا الشعر لك وتقول « حتى ظننت قوافيه ستقتل » ! — قلت : نعم لأنى سهرت فى مدح ملك ولم أسهر فى مدح سوقه ! فسكت أبو الشيص على غيظ ، وأعجب بى من حضر ، وصرت منذ ذلك اليوم كأحدهم ، أجتمع معهم وأنشدتهم ، وأستمع إلى إنشادهم . وترقت حالى ونبه ذكرى بعد ذلك ، وكان أحبهم إلى نفسى وأعلقهم بقلبى على بن الجهم ، ذلك الفتى القرشى الكريم الطبع الدمث الخلق الأبى النفس .

كذلك كنت فى بعض الأحيان أتفصح تفصح الأعراب مع أنى شاعر حضرى . أنظر مثلاً كيف كنت أصطنع لغة طى فأستعمل « ذو » بدل الذى وهى لغة طى لأدل على أنى طائى عريق ، فأقول لصاحبتى :

أنا ذو عرفت فان عرتك جهالة فأنا المقيم قيامة العذال
كما أقول لممدوحى :

إذا أنت وجهت الركاب لقصده تبينت طعم المساء ذو أنت شاربه
أليس جدى الأول جلهمة الذى طوى البئر وقال :

فان الماء ماء أبى وجدى وبئرى ذو حفرت وذو طويت

وكثيراً ما اصطنعت فى شعرى معانى بدوية من هذا الشعر الرواقى الذى يظهر فيه جلد النفس والفتوة والاسراف . فلم يكن شعرى فى الحقيقة صورة لنفسى بقدر ما كانت نفسى صورة لشعرى ، أقرأ الشعر القديم فأنأثر فأنخيل ثم أخال . والحقيقة يا صاحبى أننا تكلفنا أشعارنا كما تكلفنا فى كثير من الأحيان سيرنا ، وما كان أقسى ذلك وأشق حين نتغنى أحلاماً قديمة لا نراها ولا نحسها فتستبد بنفوسنا أحياناً حتى لنحاول أن نحققها !

أنظر كيف كنت أقول متبدياً :

إن خيراً مما رأيت من الصفح عن النائبات والاغماض
غربة تقتدى بغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض
من ابن البيوت أصبح في ثوب من العيش ليس بالفضاض
والفتى من تعرقته الليالى والفيافي كالحيمة النضاض
كل يوم له بصرف الليالى فتكة مثل فتكة البراض

فماذا كنت تظننى لو سمعت هذا الشعر ولم تعرف أنه لى ؟ كأنى
والله وأنا أقول هذا الشعر كنت فى ثوب هذا الفتى البدوى العريق
فى بداوته ، الذى يحب أن يغترب غربة طويلة قاسية مثل غربة قيس
ابن زهير العبسى ، الذى حارب ذبيان وانتقل فى البلاد ، ثم إنه ترهب
فى آخر عمره ، إلى أن لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل
حذيفة وحمل ابنى بدر قتله . وكذلك اغترب الحارث بن مضاض
الجرهمى غربة طويلة بعد أن كان رئيساً بمكة أيام قومه بها ، فجاءت
خزاعة وأجلتهم عنها ، فقال هذا البيت الحزين :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهكذا أثر هذا الشعر القديم على مثلى وفى شعرى ، بل على سيرتى العملية
كما رأيت ، حتى أحببت أن أغترب غربة طويلة كغربة هذين الرجلين ،
وأحببت أن تعرق الليالى والفيافي لخمى فأنتقل فى البلاد كما تنتقل
الحيمة النضاض ... بل أحببت أن أكون هذا الفتى الفاتك الذى
يقتل الناس فى غير حرب كالبراض بن قيس الكنانى الذى قتل عروة
الرحال فى غير حرب ، فجر ذلك إلى حرب ، الفجار بين قيس وكنانة ،
وشهدتها قريش ورؤيسهم يومئذ حرب بن أمية ، ويقال إن النبى

صلى الله عليه وسلم حضرها وهو ابن عشرين سنة . أحببت أن أكون
ففى النكبات الذى دأبه إثارة العجاجات ... أرايت !

أنظر يا صديقى إلى هذه الرواقية البدوية وما فيها من جد وزماع
حين كنت أقول لصاحبتى :

أما وأبيها لو رأتنى لأيقنت بطول جوى تنفض منه الحيازم
رأت قسما قد تقسم نضرها سرى الليل والاسنام فهى سواهم
وتلويح أجسام تصدع تحتها قلوب رياح الشوق فيها سمام

فهل رأيت إلى صورة هذا الفتى بعد أن لوحته الشمس وأثر فيه
سرى الليل ؟ وأقول لصاحبتى :

سلى هل عمرت القفر وهى سبابس وغاربت حتى لم أجد ذكر مشرق
وغادرت ربيعى من ركابى سبابسا وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيتهن رددنى جريحاً كأنى قد لقيت الكتائب !

كما أصف نفسى فأقول :

شجى فى حلق الحادثات مشرق به عزمه فى الترهات مغرب
كان له ديناً على كل مشرق من الأرض أو ثأراً لدى كل مغرب

ولا بد أن تكون قرأت أرجوزتى « وعاذل عدلته فى عدله »
ورأيت كيف صورت نفسى فتى عربياً ضارباً فى البداوة ، يسرف فى
اللهو ، ويعطى شبابه حقه من العبث ، حاذقاً بجداء الابل ، مسافراً
تلعب به النوب ، يطلع بحمله ، وينفلت لقضاء أمره ، مثل السيف فى
مضائه ، همته ولدت قبله ، مسرفاً فى ماله ، مر المذاق على أعدائه ،
كشجرة المر التى تفىء مع مراوة شمرها من يستظل بظلها !

نعم كانت موجة القديم قد بدأت تطغى من جديد فكانت ردة أدبية

قوية بعد ما رأى الناس من بشار وأبي نواس ومن إليهما ممن خرجوا عن القديم وأسرفوا في الجديد . وتستطيع أن ترجع هذا الميل إلى التبدى إلى هذه الردة الأدبية ونحن في العصر العباسى نعيش في المدن ونخالط سادة مترفين كل الترف ، لكنك تستطيع أيضا أن ترجع شيئا منها إلى استعداد طبيعى في بعض النفوس التى عشقت هذه المثل القديمة ، فقد كان في هذه الرواقية البدوية أحسن متنفس لهذه النفوس المكبوتة فالتمتست حاضراً مثالياً في هذا الشعر البدوى القديم حين عز عليها ماض من النسب كريم !

وسكت أبو تمام حتى حسبت أن كلامه قد انقطع ، لكنى سمعته يقول : ترى إلى أين ذهب بنا الحديث مرة أخرى ؟ كنت أحدثك في نسبى وفى أصلى فاستطردت . وهل كنت تريدنى حقاً على أن أصارك بأصلى وبنسبى وأثبتته لك بالأدلة والبراهين ؟ لقد كنت أرى الأدب أبى وجدى ومعشرى وقبيلى ، أقول لبعضهم ممن يتباهون بالحسب والنسب :

كذبتهم ليس يزهى من له حسب
إنى لذو عجب فيكم أردده
لحاجة هى فيكم ليس يشبهها
ومن له نسب عمن له أدب ؟
فيكم ، وفى عجبى من زهوكم عجب
إلا لجاجتكم فى أنكم عرب

وأقول لصديقى على بن الجهم :

إن نفترق نسباً يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وأخيراً فهل قرأت هذا الكتاب الصغير الذى وضعه عنى الأستاذ عمر فروخ وجعل عنوانه « أبو تمام شاعرو الخليفة المعتصم » ؟ لقد حاول هو الآخر كما حاول بعض المستشرقين أمثال نيكلسون وهيوار ومرجليوث أن يثبت أصلى النصرانى فردد قول الآمدى الذى أورده ابن خلكان

والذى عند أكثر الناس أن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم ، قرية من قرى دمشق ، يقال له تدوس العطار ، وقد لفقت له نسبة في طي ثم ذكر رأى مرجليوث الذى جاء في دائرة المعارف الاسلامية وهو لايشك في أصلى النصرانى ، لكنه لايدلل على ذلك كأنما هو شعور أو افتراض . وانتهى فروخ إلى قوله : « ومن ذلك نستطيع ، أن نصل إلى رأى لا يحتاج إلى كثير من التحفظ في إبدائه وهو أن تدوس هذا كان من الجالية الرومية التى كانت في سوريا قبل الفتح الاسلامى . » لكن شيئاً ظريفاً جاء في حديثه ولعله استرعى انتباهك ، أعنى هذه القرينة الجديدة التى استبدل بها على نصرانية أهلى ، وهى قرينة جديدة بالاعتبار حقاً لو صح تفسيره لها . فلقد جاءنى يوماً خطاب وأنا عند أبى سعيد الشغرى ينعى إلى بعض أهلى ، فكتبت إليه مستأذناً بالسفر :

يا من به يفتخر الفخر	ومن به يبتج الشعر
ما طلبى للاذن أن شاقى	شمس من الانس ولا بدر
بلى ، كتاب أخرس ناطق	أنطق منه طيه النشر
فانتشرت حين بدا طيه	سرائر يكتمها الجهر
جاء نذير الموت في بطنه	بحادث أظهره الظهر
فانهل في أسطوره أسطر	للمع سطر فوقه سطر
فمن بالاذن على نازح	عن أهله ساعته دهر
فقد صدقت الظن في كل ما	رجوة إذ كذب القطر

ففسر فروخ قولى :

جاء نذير الموت في بطنه بحادث أظهره الظهر

أن الكتاب جاءنى موشحاً بالسواد على عادة النصارى في حدادهم . ولا أدرى من أين جاء بهذا وليس في البيت ما يقطع به ، وليس في شروح المتقدمين كما تعلم ما يثبت به . فرأى التبريزى كما عرفت أن أحسن

ما يتأول في هذا البيت على مذهبي في الشعر أن أكون عنيت بالظهر
 ظهر نفسي ، أى لما أتاني الخبر انخى ظهري فأظهر ما عندى من
 الحزن ، أو يجوز - كما قال - أن يكون جاعنى في بطن الكتاب أمر
 لم أصرح به ، ثم رأيت في ظهره شيئاً مكتوباً بين لى عن حقيقة الأمر ...
 فهل يفهم من هذا أن الخطاب جاعنى موشحاً بالسواد ؟

أما أستاذكم الدكتور طه حسين بك فهو أميل إلى الشك في نسبي ،
 وأنا أعلم أنه يود أن يفرغ لى يوماً ليكتب عنى ... وددت والله أن
 يفعل ... ! ولعله يحس يونانيتى من طريقة تفكيرى ونظرتى للأشياء ،
 وأخصها الدقة والغوص على المعنى ، والنظر إلى الأشياء من طرفها
 والمقابلة بينهما ، وذكر الحالة التى تكون عليها ، ثم هذا التجسيم
 للمعنويات الذى قامت عليه الميثولوجيا اليونانية ... وأنا أعلم أنك كثير
 العشق لما يقول أستاذك ، ولعلك تشاركه هذا الحس لولا أن حسه
 هو تسنده دراسة يونانيات طويلة عرف منها عقلية القوم وخيالهم وطرق
 تفكيرهم ، فأما أنت يا صاحبى فخطك من هذا قليل فيما أظن ...

وهناك أيضاً علم من علومكم المستحدثة لو حذقته كما حذقه بعض
 العلماء لنفعك الآن نفعاً عظيماً ، ولكانت نظرة واحدة منك إلى كفيلى
 أن تعطيك فكرة عن أصلى . لكنك لا تعرف من الأثنولوجيا إلا
 ما يعرفه كثير من أمثالك الذين يقولون إنهم مثقفون ... أنظر إلى هذه
 الجمجمة جيداً فقد تكون لمصرى حامى أو سامى ، أو قد تكون حقاً جمجمة
 رجل نبطى ، أو هى من النوع الآرى ... لكنى أراك لا تعرف من
 هذا العلم إلا استدارة الرأس أو استطالتها ، وإلا ضيق الجبهة أو عرضها ،
 وإلا بعض علامات في الفك أو القمحدوة قد يتميز بها صنف من الناس
 دون صنف آخر ... وإذن فلا سبيل إلى انتفاعك بهذا العلم لتعرف
 أصلى إن كنت ممن يحرصون على معرفة الأصول ... وما أرانى قادراً على
 أن أضع رأسى بين يديك فتظل تقلب فيه لتنتهى أخيراً إلى رأى !

أما الروايات القديمة التي فقدت قداستها وخاصة عندكم في الجامعة ،
وأما هذه الآراء المحدثه فان أحدها لم يسلم إلى نتيجة مقطوع بصحتها ،
فهى أقرب إلى الظن والافتراض منها إلى اليقين والبرهان ...

وهل يضيرك فى شىء مع ذلك أن تصدق أنى عربى، الأصل طائى
النسب ؟ لقد قلت أنا ذلك ورددته فى شعرى ، وظهرت به فى حياتى ،
فإذا يهملك بعد ذلك من أمر نسبى ؟ أليس لى أخيراً من شعرى أعرق
النسب فى التراث العربى الاسلامى ؟ فلا تعن نفسك يا صديقى كثيراً
فى هذه المسألة ، ودعنى أحدثك فى ليلة أخرى عما لقيت فى حياتى من
صراع ومغالبة ، وما اختلف على نفسى من هناء وشقاء ، فلقد كانت
هذه المغالبة أكبر شىء تأثرت به حياتى ، مغالبة قوية دائمة كانت بين
نفسى وبين من عرفتهم من الناس ، وبين عقلى وبين ما عرفه من المعانى !
أم أنت لا يهملك إلا أن تعرف أعربى أنا أم رومى ، وفى أى سنة ولدت ،
وفى أى سنة توفيت ، ومتى على وجه التحديد اتصلت بهذا الأمير أو
ذاك ، ومتى ارتحلت من هذا القطر إلى ذاك ؟ لست من ذلك يا صاحبى
فى شىء ، فلن أحدثك حديث الأرقام ، ولن أتهى بك إلى مثل هذه
النتائج المادية التى تعود بعض مؤرخى الأدب العربى أن ينتهوا إليها فى
بحوثهم . لكنى سأقص عليك قصة النفس المتعبة المتحفزة ، وكيف
غالبت حتى غلبت ، وصارعت حتى صرعت ... وهل كانت مسألة
أصلى ونسبى إلا جانباً من هذا الصراع العنيف ؟

حياة المديح

سأحدثك الليلة عن المديح ، والمديح في الحقيقة سيريقي كلها ! كم ذقت من حلاوته وتجرعت من مرارته ! أى أفق جميل كان يتراءى لنا على أبواب هؤلاء السادة من الممدوحين ، وأى صراع ومغالبة كانا فى ضامئنا ونحن نتملقهم ونشيد بذكورهم ! لقد أخذت حياة المديح من نفسى كثيراً وكلفتنى جهداً قتانى ... غير أنه كان لابد من هذه الثمرة القاتلة ... أظنك فى غير حاجة لأقول لك إن شعر المديح كان طريق الشعراء إلى العيش ، وطريقهم إلى الغنى لمن ساعدهم حظهم أو جهدهم ...

لقد نسيت مدائحي ونسيت ما أفدت منها وبقي فى فمى مرارة كلمات ابن المعدل التى يقول لى فيها :

أنت بين اثنتين تبرز للناس وكلتاهما بوجه مذل
لست تنفك طالباً لوصال من حبيب أو طالباً لنوال
أى ماء ماء وجهك يبقى بعد ذل الهوى وذل السؤال

صدق والله عبد الصمد ! فقد طالما حاولت أن أبقي على ماء وجهى وطالما تململت من حياة المديح تلك ، لكننى لم أكن أستطيع أن أحيى غيرها ، وهذا هو العلقم المذاب ...

ألم تسمعني أستغيث في هذا المديح فأطلب إلى الممدوح أن ينقذني منه فأقول لأبي سعيد :

فأشدد يديك على يدي وتلافني
أصبحت في طرقاته ووجوهه
من مطلب كدر الموارد راكد
أعشى ، ولـكني نبيل القائد !
ألم تسمعني أقول :

ذل السؤال شجى في الحلق معترض
ما ماء كفك إن جادت وان بخلت
ودونه شرق من خلفه جرض
من ماء وجهي إذا أخلقته عوض
وأقول :

ومدح من ليس أهل المدح أحسبه
عضواً تفصل من قلبي ومن جسدي
وأقول :

وما أبالي وخير القول أصدقه
حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي
حتى لقد كنت أصرخ في وجه الممدوح فأقول :

فمتى أروى من لقائك همتي ويفيق قولي من سواك ومقولي !
صيحات يا صديقي نصيحتها ، وأنات كنا نفرج بها من ضيقنا ، ثم
لا نلبث أن يعاودنا الداء القديم فتتخايل المنى على أبواب السادة من
القواد والوزراء والكتاب ، ويتراءى لنا الخلفاء وهم يغمرونا بالعطاء ،
فنجرى وراء هذا السراب ونتدافع ونقتل أنفسنا قتلا من أجله ...
ودعني هنا أيضا أخفف عن نفسي قليلا وأفسح لها من ضيقها بهذا الملق
الذي قضيت حياتي فيه ، دعني أخادع نفسي قليلا كما كنت أخادعها
لأحملها على حياة المديح تلك ... وما من أحد يفكر في ذنب اقترقه

إلا وجدته يفكر كذلك فيما عساه يبرئه منه... أليس كذلك؟ وما يضيرك في شيء أن ألتبس لنفسى الأعذار وأزكى لها حياة المديح التى غيرت بها؟! لقد كان هذا المديح ملقاً حقاً ، ولكن ليت ما يملأ الحياة من ملق ورياء يصدر عنه دائماً ما يصدر عن الشعراء والأدباء وأصحاب الفنون! أراك تبنتسم يا صديقى كأنك عرفت أنى إنما ألتبس ما يبرر هذا الرياء... وإذن فلا مندوحة لى من التعرض لمجتمعكم هذا الذى تحيون فيه ، فانى أراه صورة أخرى من مجتمعنا على بعد العهد ومع اختلاف الصورة... أفهمت عنى ؟ أم تحب أن أقول لك إنكم لازلتُم تحيون حياة المديح هذى فى كثير من إنتاجكم الفنى ! نعم ولا زال هذا الملحق هو المحور العتيد الذى تدور عليه بعض الرءوس عندكم كما تدور الأرض على محورها المائل القديم... أليس كذلك ؟ ترى أيستقيم المحور يوماً ما فتستقيم أمور كثيرة ، ويخلص الأدب والفنون من شوائب مكدره ، ويحيى أصحاب المثل العليا فى رحاب واسعة من الحرية ، أم يظل الأدب توجهه القصور ويصدر لخدمة السادة ! أراك يا صاحبي مأخوذاً كأنك لا تعنى ما أقول ، أو أنت فى الحقيقة تعنيه لكنك لا تؤد أن أخوض فيه فأجلوه وأضع أصابعك العشرة عليه ، فلا يبقى لك من كبريائك شيء ! لست أشك فى أن بعض أدبكم أو كثيراً منه قد تحرر من هذا المديح الصريح أو الرسمى الذى كان فى أيامنا ، لكنك مع ذلك لا تستطيع أن تدعى أنكم تصدرون فى آثاركم الفنية عن حرية تامة ، ولا تضطرنى أن أذكر لك فيما تسخر الأقلام عندكم... نعم كنت أمدح القواد الذين حاربوا الروم أيام المعتصم والواثق ، وبالأمس القريب كانت عندكم حرب مبيرة لا يزال أديم الأرض شرقاً يفهق بدمائها ، حرب بين الديموقراطيين وغيرهم من الفاشيين أو النازيين ، فهل نسيت هذا الانتاج الأدبى الذى امتلأت به الصحف والمجلات ، والذى امتلأ به الأثير أيضاً فى تمجيد هذه الديموقراطية والدفاع عنها والانتصار لها وإطراء مبادئها ورجالها ! أراك تقول فى نفسك كلا فانها مبادئ دافعنا عنها ، والمبادئ شيء

والأشخاص شيء آخر ... ولا شيء يملأني ضحكاً كبراعة الناس في الاحتيال على أنفسهم وخداعها بمثل هذا ! ألم تسأل عما أفاده هؤلاء الأدباء الذين دافعوا عن تلك المبادئ ! أم اقتصرت الأخبار والروايات على ذكر صلوات الخلفاء وتركت صلوات الحلفاء ؟ على أية حال لا أحب أن أخوض كثيراً في هذا فربما عرفت أنت من ذلك ما لا أعرف ، وإنما أردت قبل كل شيء أن أخفف من غلوائكم في تقبيح شعر المديح والزراية بأمثالنا ممن قضت عليهم ظروفهم أن يقضوا حياتهم فيه ...

وأنت تعلم أن المدحة ليست كلها تعداداً لمناقب الممدوح أو ثناءً عليه ، لأننا نستهل مدائحنا عادة بالوقوف على الديار والأطلال ، فنقف ونطيل الوقوف ، ونشب ونطيل التشبيب ، ونستعبر ما شئنا أن نستعبر ، ونحدث إلى أصدقائنا وصديقاتنا كثيراً في هذا القسم من المدحة ، فهلا ترى أننا في كل هذا نتحدث عن أنفسنا ونترجم عن مشاعرنا ؟ وإلا فما هؤلاء أصحاب الذين نجردهم من نفوسنا وندعى أنهم لا يفهمون عنا ، ولا يحسون عواطفنا ، ولا يقدرون وفاءنا حين نقف على الديار بالبكاء والاستذكار ! أحببنا التعريج على هذه الديار مع أنها مضت ومضى أهلها وأصبحت موحشة لا تسكنها إلا الطباء والآرام ، لكن هؤلاء الأصدقاء أبوا أن يقفوا معنا على ديارنا وأطلالنا لأنهم قوم لا يعينهم إلا أن يصلوا ... إنهم قوم لا يهمهم إلا الحاضر المائل ... فأما نحن فلم نشأ أن نتخلي عن هذا الماضي فقد اتصلت به يوماً نفوسنا وسعدت به قلوبنا ... نحن قوم نمجد هذه الخرائب لأننا نحب ذكرها ونحب قدمها ! ولكم حاولنا أن نجعل هذا الصاحب يفهم عنا ، فذكرنا لهم لماذا نحب التعريج على هذه الديار ، لكننا أخيراً كنا نستياس منهم فنضطر أن نمضي معهم ... نعم كنا نضطر أن نمضي معهم لأننا وإياهم في طريق واحدة ... أفهمت عني يا صديقي ؟ أم تراني ألغز ؟ ما أحوجك يا صديقي إلى مثل هذه الديار والأطلال في مثل هذه الأيام !

فهذا جزء من المدحة قد يطول وقد يقصر ، وهو تقليدى قبل كل شئ ، لكنه كان مثابة لنفوسنا تهرع إليها قبل الرياء كما يستريح الواحد منا قبل رحلة شاقة ... وأنت تعرف أن بعضنا كان يطيل في هذا القسم من القصيدة حتى لكان ما يأتى بعد ذلك من المديح شئ ثانوى ... لقد كنت أحب هذه الوقفات على الدار حيث أربط ماضى بحاضرى وأقف بينهما حزيناً مضطرباً ... فاقرأ يا صديقى وقفساتى على الدار قراءة جديدة فلعلك تعرفنى منها ، أقرأت :

أذيلت مصونات الدموع السواكب	على مثلها من أربع وملاعب
رئيس الهوى بين الحشا والترائب	أقول لقرحان من البين لم يصف
أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب	أعنى أفرق شمل دمعى فأننى
عدوى حتى صار جهلك صاحبي	فما صار فى ذا اليوم عدلك كله
ألا إنما حاولت رشد الركائب	وما بك إرشادى من الرشد مركباً
فأصبحت ميدان الصبا والجنائب	أמידان هوى من أتاح لك البلى
هواك بأبكار الأطباء الكواعب	أصابتك أبكار الخطوب فشنت

أرأيت كيف أذلت دمعى على الدار ؟ أرأيت كيف طلبت إلى هذا صاحب القرحان من البين ، أو الخلى من الحب ، أن يعيننى على البكاء ؟ لكن هذا صاحب جاهل بالحب لأنه لم يصبه فالتست له العذر على ضيقى بعدله ، وعرفت أنه إنما يفكر فى ركائبنا قبل كل شئ ، ولا يجب أن يتعبها بكثرة الوقوف والتعريح على مثل هذه الدار . كم من الناس على هذه الشاكلة ؟

ثم يأتى المديح ... فاذا الممدوح أمام عينى الواحد منا دمية بديعة الصنع قد صيغت من شجاعة ونجدة ، وكرم ومروءة ، وما تعرف من هذه الصفات التقليدية ... ومنا من كان يتغنى هذه الصفات بقلبه حقاً ، ومنا من كان يتغناها بعقله من أجل فنه ، ومنا من كان يتغناها بهما

معاً . وهى على كل حال مثل عليا نصوغها أجهل صياغة ، وندلل عليها فى سوق الأدب فنبيعها لمن يشتريها ! فأما الممدوح فينخدع عن نفسه فى كثير من الأحيان ، ويرى وهو يصغى إلى المدحة أنه استحال إنساناً له مثل هذه الصورة التى نصوره عليها . وما يمنع من ذلك ؟ أليس يحمل بالصديق أن يمنح صديقه بعض صفات من النبيل حتى لو لم تكن فيه ، لأنه بغير ذلك لا يستطيع أن يراه أو يصاحبه ! ماذا يمنع من هذا الاستنهاز وهذه الاثارة لاسيما إذا كانت تؤدى أداءاً فنياً بديعاً ؟ على أن هؤلاء الأصدقاء من الممدوحين قد كانوا كرماء حقاً ، فهم قد أحسنوا إلينا كثيراً ، وخلطونا بنفوسهم ، وأعجبوا بأشعارنا ، وكان لهم فضل على الحياة الأدبية كلها ... ثم إنهم أحبوا أن يكونوا هذه الدمي التى نشكلها كما نشاء ، ونصوغها كما نحب من الناحية الفنية الخالصة . أما أنا فقد كان يخلو لى فى كثير من الأحيان أن أصنع دمي من طينة ضاربة فى البداوة ، ولم يكن يعينى كثيراً أن ترضى هذه الدمية عن هذه العبادة البدوية أو لا ترضى بقدر ما كان يعينى أن أرى أنا هذه الدمية كما يشتهى فنى ويحب ... وكثير من هؤلاء السادة الذين مدحتهم وكسوتهم صفات مثالية كانوا لا يحققونها فى أنفسهم ، وربما كانت غريبة عنهم ، لكنهم مع ذلك أحبوها فى أشعارنا ، وأجزلوا عليها عطاءنا ... أتذكر قصتى مع الأمير أحمد بن الخليفة المعتصم حين كنت أنشدته سينيتى :

ما فى وقوفك ساعة من باس نقضى زمام الأربع الأدراس

أتذكر أننى عند ما قلت له منها :

إقدام عمرو فى سباحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندى الفيلسوف ، وكان عند

الأمير وأراد أن يتملقه : « الأمير فوق من وصفت ، كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعراب أجلاف وهو أشرف منزلة وأعظم محلة ؟ » فانقطعت ، وكأئما دارت بي الأرض ، وغصت في نفسي ، وما هي إلا ومضة خاطر وقدحة فكر ، حتى قلت على الفور :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

ومضيت في قصيدتي إلى أن أتممتها ، وظنوا أنى كنت أعددت هذا الجواب وكتبته مع القصيدة في القرطاس ، فلما أخذوها من يدي ونظروا فيها لم يجدوا البيتين ، فعجبوا وأثنوا كثيراً على فطنتي وحاضر بديهتي . . . وقال الفيلسوف الكندى : « إن هذا الفتى سيموت قريباً لأن نفسه كالسيف الصقيل الذى يأكل حديدته غمده ! » ما كان أحقهم والله في هذا ! وهبنى كنت أعددت هذا الجواب فهل كنت من البلاهة بحيث أكتبه في الرقعة ؟

فهل رأيت كيف أنف الكندى أن أشبه الأمير أحمد بن المعتصم بعمر بن معدى كرب الزبيدى أبى ثور الفارس المشهور صاحب الوقائع والغارات المشهورة فى الجاهلية والاسلام ، وصاحب الصمصامة ؟ أترى كيف أنف الكندى أن أشبه الأمير بالأحنف بن قيس أبى بحر الضحاك صاحب صفين ؟ الأحنف بن قيس هذا الذى دخل على معاوية فقال له معاوية : والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حرازة فى قلبى إلى يوم القيامة ! فقال له الأحنف : « والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى أعمادها ، وإن تدن من الحرب فترا ندن منها شبراً ، وإن تمش إليها نهول . » ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت لأخيها : من هذا الذى يهدد ويتوعد ؟ — قال : « هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيم

غضب ! « فهذا الذى يأبى الكندى أن أقرنه بأميّره أو أقرن أميّره به ! وقد يدلك هذا الحادث الفردى على تقلص ظل العرب فى هذه الحياة العباسية ، كما قد يدلك على رد فعل قوى بعث فى نفوسنا هذه المثل العربية القديمة ...

على أن هؤلاء الممدوحين كانوا يرضون كل الرضا من الناحية الفنية الخالصة حتى وإن كانت هذه الملابس البدوية التى نضعها عليهم لا تمت لحياتهم بسبب .

ثم أين كنت أنفق هذه الثروة الضخمة التى أفدتها من إدامة النظر وكثرة القراءة فى الشعر العربى ؟ هذه المعانى التى أنفقت عمرى فى معرفتها لى أستغلها فى شعرى ... أين كنت أنفق هذا إذا أنا لم أنفقه فى مدح الملوك والأمراء ... ألم يحدثك الرواة أننى كنت أحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة بلبه القصائد والمقطوعات ؟ وعلى من كنت أعرض معانى التى قتلت نفسى من أجلها إذا أنا لم أعرضها على هؤلاء الكتاب المترفين فى أذواقهم وتفكيرهم وثقافتهم ؟ وشعر الحماسة الذى جمعت منه ما جمعت ، وصنعت منه ما صنعت ، على من كنت أعرضه إذا لم أعرضه على هؤلاء القواد المنتصرين فى حروبهم ضد الروم ؟ لحا الله ابن المعذل ، ولحا الله دعبل ، فلو قد أتيح لهما ما أتيح لى من النجاح ما عادانى ولما عيرانى حياة المديح التى قصراً عنها ! ... ومع ذلك فقد دفعت ثمنناً باهظاً من كدى ودأبى ... أذكر أننى حين كنت بقزوين دخل على يوما أبو الفضل أحمد بن طاهر وحوالى من الدفاتر ما غرقت فيه ، فوقف ابن طاهر على رأسى ساعة وأنا مستغرق فى القراءة ولم أشعر بقدومه ، فحين رفعت رأسى رأيته واقفاً ينظر إلى ، قلت : أبا الفضل ؟ قال : أنا هنا منذ ساعة وأنت لا تعلم بمكانى ، قلت : ذلك لما أنا فيه . ثم سلم وسلمت ، فقال لى : يا أبا تمام إنك تنظر فى الكتب كثيراً وتدمن الدرس ... قلت : والله ما لى ألف غيرها ولا لذة سواها . ثم نظر ابن طاهر فرأى كتابين واحداً عن يمينى

والآخر عن يسارى ، وكنت أقرأ فيهما فقال : فما هذا الذى أرى من معايتك إياه أوكد من غيره ؟ قلت : فأما الذى عن يميني فالثلاث ، وأما الذى عن يسارى فالعزى ، أعبدهما منذ عشرين سنة ... وكان الذى عن يميني شعر مسلم بن الوليد صريع الغواني ، وعن يسارى شعر أبي نوايس ...

وحين كنت بمصر أذكر أننى خرجت يوماً والحبل المصرى إلى شاطئ النيل فدفعنا ثيابنا إلى امرأة لغسلها ، ونام هو وجلست أنا ومعى شعر الطرماح ، فما فرغت المرأة من ذق ثيابنا حتى كنت حفظت له خمس عشرة قصيدة ، فلما استيقظ وعلم ذلك أخذه العجب ...

فهل كنت أعنى نفسى هذا العناء حين أقرأ الشعر القديم كله ، وأحفظ منه آلاف القصائد ، وأتمثل معانيه المختلفة ، هل كنت أعد نفسى هذا الاعداد لأتغنى بجمال صفصافة عجوز تدلت شعورها إلى ماء النيل ؟

ودع الآن هذه الآلاف من الدراهم والدنانير وما أتيح لى بسببها من عيش ناعم ونفع لنفسى ولغيرى وانظر للنجاح الذى أصبت ، فلقد كان لتقدير شعرى أعظم الأثر فى نفسى ، ويكفى أننى أحملت شعراء وقتي ... أتذكر حين كنت أنشد أبا دلف العجلي بأيتى :

على مثلها من أربع وملاعب
أذيلت مصونات الدموع السواكب

وكان حوله جماعة من أشرف العرب والعجم ، فلما بلغت إلى قولى :

إذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد تقطع ما بينى وبين النوائب
إذا ما غدا أغدى كريمة ماله هديا ولو زفت لألام خاطب
وأحسن من نور يفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

فحين وصلت منها إلى قولى :

مكارم لجت فى علو كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

قال أبو دلف : يامعشر ربعة ما مدحتم بمثل هذا الشعر قط ، فما عندكم لقائله ؟ فبادرنى القوم بمطارفهم وعمائمهم يرمون بها إلى ، فقال أبو دلف : قد قبلها وأعاركم لبسها وسأنوب فى ثوابه عنكم ، ثم التفت إلى وقال : تتم يا أبا تمام ... فلما بلغت إلى قولى :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقت بسحائب

قال أبو دلف : ادفعوا إلى أبى تمام ألف درهم ، ووالله إنها لدون شعره ؛ وحين انتهيت منها قال لى : والله ما مثل هذا الشعر إلا مارثيت به محمد حميد الطوسى ! قلت : وأى ذلك أراد الأمير ؟ قال قولك :

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أمخصك الحشر
غدا غدوة والحمد حشو ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
كان بنى نيهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكى عليه الجود والبأس والشعر

ثم قال أبو دلف : وددت أنها والله لك فى ! - قلت : بل أقدى الأمير بنفسى وأكون المقدم قبله - قال : لم يمت من رثى بمثل هذا الشعر !

فهذا التقدير الذى يبلغ برجل كأبى دلف فيتمنى أن لو كانت هذه المرثية فيه كان عندى كل شيء ، وكان يدفعنى دفعاً قويا إلى الاستمرار فى هذه المدائح حتى كنت أتلصص من أمدحه .

كنت يوماً أنشد الحسن بن رجاء قصيدتي اللامية :

كفى وغاك فأننى لك قالى ليست هوادى عزمتى بتوالى

وكان الحسن فى مجلس شرب ، وحين وصلت منها إلى قولى أصف حالى :

عادت له أيامه مسودة حتى توهم أنهم ليالى

قال الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم ... فلما قلت :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وتنظرى خبيب الركاب ينصها محيى القريض إلى مميت المال

قام الحسن بن رجاء وقال : والله لا أتمتها إلا وأنا قائم ! فقامت

لقيامه ، واستأنفت الانشاد إلى أن قلت :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى

كالغيث ليس له — أريد نواله أو لم يرد — بد من التهطل

فأقبل على وعائقتى ، ثم قال : ما أحسن ما جليت هذه العروس !

قلت : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها !

وأقامت عند الحسن بعد هذه القصيدة شهرين أخذت فيهما عشرة آلاف

درهم ، على بخل كان فى الحسن بن رجاء .

فهذا يا صديقى بعض ما كنت أراه من وقع شعرى وتقديرى فى نفوس

هؤلاء السادة ، وهذا ما كان يخفف ما كنت أجده من الضيق بحياة

المديح والسؤال ...

أما ما وصلنى من هبات وصلات فقد كان شيئاً كثيراً حقاً ، ومع ذلك

فقد كنت أنفق ما آخذ على كثرته ، أنفقه فى اللذة والترف ، وأنفقه

فى البر والخير . والحق أنى كنت أحب الحياة المترفة ، فاتخذت بطانة

لى من الغلمان ، وكنت أحب أن أشرب وأطرب ، فاذا خلت يدى شكوت لبعض هؤلاء الأصدقاء ممن كنت أمدحهم فيبعثون إلى بما كان يكفل لى حياة البذخ .

أذكر أننى خرجت إلى خالد بن يزيد الشيباني وكان يلى أرمينية فامتدحته فأمر لى بعشرة آلاف درهم ونفقة لسفرى ونصحنى ألا أقيم إن كنت أعتزم السفر . وودعنى ومضت أيام ، فركب خالد يتصيد فرأى تحت شجرة وقدامى زكرة فيها نبيذ و غلام بيده طنبور . فقال : حبيب ؟ — قلت : خادمك وعبدك ! — قال : ما فعل المال ؟ — قلت :

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئاً لدى من صلتك
ما مر شهر حتى سمحت به كأن لى قدرة كمقدرتك
تنفق فى اليوم بالهبات وفى الساعة ما تحتنيه فى سنتك
فلمست أدرى من أين تنفق لو لا أن ربي يمد فى هبتك

فابتسم خالد وأمر لى بعشرة آلاف أخرى .

والحق أن صداقة بعض هؤلاء الممدوحين كانت أحب إلى نفسى من كل ما أصبت من صلوات . أحببت كثيراً منهم وعاشتهم معاشرة الأصدقاء ، وكانت هذه الصداقة وهذه العشرة كثيراً ما تنتج أدباً ظريفاً نرسل فيه نفوسنا إرسالاً . وما أكثر ما أنتج عبثنا ووجوننا من معان صغناها فى شعر لطيف تهادينا به ، فبعضه ذاع وطار بين الناس ، وبعضه الآخر لم يسمع به غيرنا ... من ذلك أنه كان لى غلام رومى ، وعند الحسن بن وهب غلام خزرى ، وكان الحسن كثيراً ما يثيرنى حين يتعشق غلامى ، وكان بعض الأصدقاء من خاصتنا يغمزنى ويستثيرنى لهذه العلاقة بين الحسن وبين غلامى . قال لى بعضهم يوماً : غلامك أطوع للحسن من غلام الحسن لك ! — قلت : لأن غلامى يجد

عنده ما لا يجد غلامه عندي ، أنا أعطى ذاك قيلاً وقلاً ، وهو يعطى غلامى ما لا ! لكن الحسن لم يسكت ولم يقف عند حد ، فقد رأيت يوماً يعبت بغلامى فاغتظت ثم قلت له أهدده : والله لئن أعنقت إلى الروم لنركضن إلى الخزر ! فقال ابن وهب : لو شئت لحكمتنا واحتكمت ! — قلت : أنا أشبهك بدادود وأشبهنى بخصمه ... قال : لو كان هذا منظوماً خفناه ، فأما منشوراً فهو عارض لا حقيقة له . فلما لبثت أن عملت هذه القصيدة الرائية :

أبا على لصرف الدهر والغير وللحوادث والأيام والعبر

وفيهما من العبت ما تعرف :

كان ذلك أيام كان ابن الزيات يزر للوائق ، وكان هذا الوزير قد وقف على ما بينى وبين الحسن فى غلامينا . وابن الزيات شاعر أديب قبل كل شئ . فتقدم إلى بعض ولده — وكانوا يجلسون عند الحسن بن وهب أن يعلموه خبرنا مع غلامينا ، حتى عزم غلامى يوماً على الحجامة ، فكتبت إلى الحسن رقعة أعلمه بذلك ، وأسأله التوجيه لى بنبيذ ، فوجه إلى بمائة دين و مائة دينار وخلعة وبخور ، وكتب شعراً ظريفاً يتغزل فيه بغلامى ، ويظهر أنه كان يريد أن يرسل شعره هذا مع هديته لكنه أبقاها عنده حتى نتقابل فيطلعنى عليه . وكتب الشعر فى رقعة ووضعها تحت مصلاه . فبلغ الوزير خبرها فوجه إلى الحسن فشغله بشئ من أمره ، ثم أمر من جاءه بالرقعة ، فوجد الحسن يقول :

ليت شعرى يا أملح الناس عندي هل تداويت بالحجامة بعدى ؟
دفع الله عنك لى كل سوء باكر رائح وإن خنت عهدى
قد كتبت الهوى بمبلغ جهدى فبدا منه غير ما كنت أبدى
وخلعت العذار فليعلم الناس بأنى إياك أصفى بودى

وليقولوا بما أحبوا إذا كنت وصولاً ولم ترغنى بصد
من عذيري من مقلتيك ومن إشراق ثغر من تحت حمرة خد؟

فلما قرأها ابن الزيات كتب في الرقعة على لسانى :

ليت شعرى عن ليت شعرك هذا أهزل تقوله أم بجهد
فلئن كنت فى المقال محققاً يا ابن وهب لقد تطرفت بعدى
وتشبهت بى وكنت أرى أنى م أنا العاشق المتم وحدى
... الخ .

ثم قال ضعوا الرقعة مكانها . فلما عاد الحسن إلى بيته وتناول الرقعة
وقرأها عرف كل شئ فقال : إنا لله ! افتضحنا والله عند الوزير !
وأعلمنى بما كان ووجه إلى بالرقعة . وبعد أيام لقينا الوزير لنعتذر
إليه فقلنا له : إنما جعلنا هذين الغلامين سبباً لتكاتبنا بالأشعار !
فقال — ويا لها من كلمة — : ومن يظن بكما غير هذا ! فكان قوله هذا
أشد علينا . . .

وهكذا يا صديقى كنت أحى مع بعض هؤلاء الأصدقاء من ممدوحى ،
فلا تحسبن موقفى منهم جميعاً كان موقف المادح الذى يقول المدحة وينتظر
النوال عليها ، ثم لا يكون بينه وبين ممدوحه أكثر من هذا ...

على أنى أنا الآخر كنت فى بعض الأحيان سيّداً كهؤلاء السادة أعطى
من جاء يستجدينى ، وأحب أن يكون لى حظ من الجود والكرم ، بل
لعلنى لم أخدم هؤلاء القوم إلا من أجل أن يخدمنى قوم آخرون ، وأنا
القائل :

ومن خدم الأ قوام يرجو نوالهم فانى لم أخدمك إلا لأخدم

وما أحب أن أركى لك نفسى وأظهرك على ما أنفقتة فى ذلك لولا

أني أحب أن تعلم أني كنت آخذ لأعطي ، وأستجدي لأجود ، ولولا
 أني أحب أن أقول لك إنه بغير هذه الصلات لم أكن أستطيع إرضاء
 هذه النزعة من الخير في نفسي . . . كنت أساعد أهلي وأساعد
 أصدقائي ، وأشعر اني أنا الآخر موضع رجاء وأملا عند بعض العفاة . . .
كان هذا المال الذي أتكسبه ثم أنفقه يجعلني أحس أني شيء له بعض
النفع في الحياة . . . وإذا كان هؤلاء السادة من الممدوحين أخذوا مني
 أكثر مما أعطوني ، فأنا الآخر يخيل لي أني أخذت من أصدقائي الذين
 طلبوا نوالي أكثر مما ساعدتهم به ! إنما أعطيتهم مما بقي في يدي من
 هذه الصلات ، أما هم فقد أعطوني شعوراً بانسانيتي ولذة لنفسى وقيمة
 لحياتي ، كما أعطوني معاني لشعري . . .

حضرني مرة أحمد بن أبي فتن الشاعر وقد وصلت بمائتي دينار فدفعت
 منها إلى رجل كان عندي مائة ، فنظر إلى أحمد وتعجب وأخذ يلومني على
 إعطاء ما أعطيت ويقول : لو كان شقيقك ما عذرتك مع اضطراب
 حالك . . . لكن ترى أين تكون هذه المائة دينار بجانب ما امتلأت
 نفسي به بعد ذلك من شعور بانسانيتي وقيمة لحياتي ؟ أنظر كيف قلت
 بعد ذلك من قصيدة :

وأخوتي أسوة عندي وإخواني	ذو الود مني وذو القربي بمنزلة
فهم وإن فرقوا في الأرض جيران	عصابة جاورت آدابهم أدبي
أبداننا لشام أو خراسان	أرواحنا في مكان واحد وغدت
لصيق روحى ودان ليس بالبدان	ورب نائي المغاني روحه أبدا

و كنت أطلب من بعض ممدوحى أن يعينني على قضاء حق هؤلاء
 الأصدقاء فأقول من هذه القصيدة :

نارى وجدد من حالى الجديدان	لا تخلقن خلقى فيهم وقد سطعت
والآن أنكرهم فى دهري الثانى ؟	فى دهري الأول المذموم أعرفهم

لاقي إذن غرسهم أ كدى ندى وجرت
أخى أخ لى فرد لا قسيم له
مسلط حيث لاسلطان لى ويدي
ترد عن بحرك المورد راجعة
كالنار باردة فى عودها ولها
ما أنسى لا أنسى قولاً قاله رجل
نل الثريا أو الشعرى فليس قى

منى ظنونهم فى شر ميدان
فى خالص الود من سرى وإعلاني
مغولة النفع والسلطان سلطاني
بغير حاجتها دلوى وأشطاني
إن فارقتة اشتعال ليس بالوانى؟
غضضت فى عقبه طرفى وأجفاني
لم يغن خمسين إنساناً بانسان

وهكذا كنت أجد نفسى أتغنى هذه المثل فى الخير والوفاء ، وهكذا
كانت هذه المائة دينار التى دفعتها لهذا الرجل أحلى مذاقاً فى حلقى من
كل شيء ...

وكان بعض هؤلاء الأصدقاء المملقين يصادفنى حين يجيئنى مفلساً مثله ،
فأحتال له وأجعل من موقفى منه موضوعاً لشعر يشفع له عند بعض
من كنت أستجديهم . جاءنى بعضهم يوماً وكان قد بلغه أنى أفدت
وأثريت فأسقط فى يده حين وجدنى مفلساً مثله ، ولكنى قلت له :
لوجمعت ما آخذ ما احتجت إلى أحد ، ولكنى آخذ وأنفق وسأحتال لك ،
وكتبت إلى أبى سعيد بهذه الأبيات :

لازلت من شكرى فى حلة
يقول من تقرع أسماعه
لى صاحب قد كان لى مؤنساً
تحمل منه العيس أعجوبة
ذا ثروة يطلب من سائل
فشارك المقمور فيه ولا
فؤدك الزائر مجد ولا

لا بسهما فى سلب فاخر
كم ترك الأول للآخر
ومألفساً فى الزمن الغابر
تجدد السخرى للساخر
ومحفماً يطلب من شاعر !
تكن شريك الرجل القامر
كرفدك الزائر للزائر

فوجه لى أبو سعيد بثلاثمائة دينار ولهذا الصديق بمائتى دينار ، فأعطيته

خمسین دینارا حتی شاطرته ... أرأیت إلى بركة هذا الصديق على جیبی وعلى شعری ؟

وما كان أحد أخص بسليمان بن وهب مني ، ولا كان يأنس بأحد أنسه بي ، وكان كثيراً ما يعاتبني على كثرة ما أخذ من الأموال وإنفاقها حتى بقيت محتاجاً ، فعرفته من إجرائي على أمل لي بالشام ، وشرحت له خبري مما لم يستحل معه بعد ذلك لومي . ولقد كان لهذا العتاب من سليمان بن وهب في نفسي أثر أي أثر ، فتهيأت نفسي للشعر ، وقلت هذه البائية وهي من أحب قصائدي إلى :

أي مرعى عين ووادي نسيب لحبته الأيام في ملحوب

وقد لا تصدقني إذا قلت لك إنني لم أحس قدر نفسي وأشعر بقيمة حياتي مثلما شعرت في حادث بسيط تافه ربما كان يدعو إلى الضحك . كنت عند الحسن بن رجاء حين دخل علينا حاجبه وهو يتشم ، فقال له الحسن : ما شأنك ؟ — فقال : بالباب رجل يستأذن ويزعم أنه أبو تمام الطائي ... فضحك الحسن وقال : قل له ما حاجتك . فقال الحاجب : يقول مدحت الأمير — أعزه الله — وجئت لأنشدته . قال الحسن : أدخله . ودخل شيخ يبدو أنه ظريف ، فلم يقل له الحسن شيئاً حتى حضرت المائدة ، فأمر الحسن فأكل معنا ، وبعد الطعام قال له : من أنت ؟ — قال الرجل : أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، مدحت الأمير أعزه الله — فقال الحسن : هات مدحك . فأنشده قصيدة حسنة من شعري ، فقال الحسن : أحسنت وقد أمرت لك بثلاثة آلاف درهم . ولم يظهر على أحد من الحاضرين شيء لأن الحسن كان قد تقدم إلينا قبل دخول الرجل ألا نقول له شيئاً . ثم أشار إلى الحسن ، فتقدمت إليه وطلبت منه أن يميز لي بيتاً من الشعر ، فلجلج المسكين واضطرب ، فصحت في وجهه وأنا أصطنع الغضب : ويحك ! أما تستحي أن ادعيت اسمي واسم أبي ونسبي وأنا أبو تمام ؟ فضحك الرجل وقال : لا تعجل

على حتى أحدث الأمير - أعزه الله - قصتي . أنا رجل كانت لى حال تغيرت ، فأشار على صديق لى من أهل الأدب أن أقصد الأمير بمدح ، فقلت له : لا أحسن - فقال : أنا أعمل لك قصيدة ، فعمل هذه القصيدة ووهبها لى ، وقال لعلك تنال بها خيراً ... فضحك الحسن وضحكنا جميعاً ، وأحببنا الرجل لصراحته التى تشبه السذاجة ، وأشفقنا عليه لعوزه واضطراب حاله ، وقال له الحسن : قد نلت ما تريد وقد أضعفت جائزتك . ثم صار ينادمه طول يومه ، وصرنا نتولع به ونكنيه أبا تمام .

على أن هذا الشر الذى كان يؤذى نفوسنا حين نستجدى الممدوحين فيبطئون علينا ويعرضون عنا كان هو الآخر نوعاً من الخير لأن إعراضهم عنا أو تجهمهم فى وجوهنا أو بخلهم ومطلهم كان باعثاً قويا على عمل الشعر فى العتاب أو الهجاء أو شكوى الزمان ، وقد ترك هذا قدراً كبيراً فى الشعر العربى كما تعلم . والحقيقة أنهم جميعاً - أعنى الممدوحين - لم يكونوا ليستحقوا منا كل ما صنعناه بهم لولا هذا التجنى الذى استبد بنا ، ولولا أننا كنا نلتمس هذه الاثارة عن طريق سلبى كما نلتمسها عن طريق إيجابى .

وأنا لأستطيع فى هذا الوقت المحدود أن أحدثك بكل ما كان بينى وبين ممدوحى فأنت تعلم أنهم كثرة - وهل تركت أحداً من رجال الدولة لم أقصده بمدح ؟ لكنى أذكر لك شيئاً من ذلك لترى ماقلت لك من هذا الصراع الذى ملأ حياتنا ، ولترى مع هذا فضل حياة المديح تلك على حياتنا الوجدانية .

كنت فى مصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وكانت مصر فى ذلك الوقت مسرحاً لفتن كثيرة وحروب دامية ، تقسم أمرها ولاية متباغضون وأحزاب كثيرة متناحرة ، فهذه القبائل العربية التى هبطت أرضها لاتزال تحمل معها داءها القديم ، أعنى العصبية بين القيسية واليمينية ، وهؤلاء أهل مصر فرقتان بين الأمين والمأمون ، والناس جميعاً متظلمون

من الولاة وتعسفهم في جباية الخراج ، والعداء مستحكم بين الجند وبين أهل الخوف الذين كانوا بجهة بليس ، وكان قوم من الأندلسيين قد أغاروا على الاسكندرية فظل المصريون يحاربونهم ليجلوهم عنها ... كان كل شيء في مصر في ذلك الوقت ثائراً مضطرباً ، وأنت تعلم أن الأدب يفيد أحيانا من هذه الثورات ، وظهر بعض الشعراء يذكرون من هذه العصبية ، ويصفون المواقع الكثيرة ، وكان أنبههم ذكراً وأكثرهم شعراً إثنان المعلى الطائي وصاحبه سعيد بن عفير .

وكنت أعددت عدتي ووثقت من قدرتي ، ورأيت أن هذه المواقع خليقة أن تذكر وأن تصور ، وفي جعبتى لها من الشعر القديم قدر غير قليل . وكان على في بادىء الأمر أن أتصل بأمر من الأمراء أو قائد من القواد أمدحه ، فاتصلت بالمطلب الخزاعي وإلى مصر لعلني أحقق عنده ما لم يحققه دعبل الخزاعي من قبلى ، وقد ولى المطلب أمر مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨ هـ ، لكنه ما لبث أن عزل عنها حين هزمه ابن السرى ، ثم عاد فولأها ثانية حين انتصر على أهل الخوف ، وما زال المطلب يولى ويعزل إلى أن انقضى القرن الثانى الهجرى وأنا دائم الجدل لأكون شاعره الذى يشيد بانتصاراته لاسيما أنه من عيون اليمنية بمصر ، ولى بهذه اليمنية وشيجة حدثتك عنها . لكن المطلب خيب ظنى بما كان يلحقه من هزيمة ، وخيب ظنى كذلك ببخله حتى صفرت منه يدي ، وأسفت على ما أزجيت له من مديح ، ولعلك تذكر هذين البيتين اللذين أنهيت بهما عشرتى معه فربما وقفاك على شيء من إسخرتى الجزينة :

أول عدل منك فيما أرى أنك لا تقبل قول الكذب
مدحتكم كذبا فجازيتنى بخلا ، لقد أنصفت يامطلب !

كانت خيبة صادقتها لكنها لم تثنى عما اعتزمته ، فاتصلت بعده بقائد يمني آخر هو عياش بن لهيعة الحضرمي ، وحديث عياش هذا قد يطول بعض الشيء فالى لقاء آخر في ليلة قريبة إن شاء الله .

في مصر مع عياش

قال أبو تمام :

حاولت أن أحقق عند عياش ما لم أحققه عند المطلب فكانت لي معه قصة تشبهها قصة المتنبي مع كافور من بعدى ، وتشبه قصة أبي نواس مع الخنصيب من قبلى . وكأن قصة كل منا مع صاحبه ليست في الحقيقة إلا قصة الحياة ومفاراتها حين تجعل من الشاعر مداحة يستجدى على حين تجعل من غيره أميراً يجود ويعطى ...

والفصل الأول من هذه القصة أمل مرتقب حين يتهافت الشاعر منا على هذا الأمير أو ذاك ، ويرحل إليه من أقصى الأرض ، حتى إذا جاءه لم يجد عنده ما كان يرجوه ، لأن ما يرجوه الواحد منا شيء لا يكاد يجد . ذلك لأن حياتنا الأدبية من طبيعتها دائماً أن تبسط من أحلامنا وتمد من آمالنا ، وبغير هذه الأحلام البعيدة الممتدة ، وبغير هذه الآمال العريضة المسرفة كان يخيل إلينا أننا لانستطيع الحياة ، فكنا نطلب على قدر خيالاتنا فنكثر من الطلب ، ونتجنى فنكثر من التجنى ...

وفي الفصل الثانى يدب إلى النفس بعض اليأس ، لكن هذا اليأس مشوب بخوف وحذر ، فنعمد إلى العتاب الذى تتأرجح فيه النفس بين الظن واليقين ، وبين الأمل والخيبة .

وفي الفصل الثالث تكون النتيجة المنتظرة والخاتمة المحققة حين يأمن

الشاعر منا على نفسه فيطلق من لسانه ويتشفى من الحياة كلها حين يتشفى من ممدوحه .

مدحت عياشا بعدة قصائد ، فلم أجد عنده ما كنت أرجوه ، فعاتبته ، ثم انقلب العتاب آخر الأمر إلى هجاء . وكنت أستطيع أن أقصر معه لولا أن نفسي هذه الوقت كانت ساخطة على كل شيء . كانت أولى قصائدي فيه هذه البائية .

تقى جمحاتي لست طوع مؤنبي وليس جنبي إن عدلت بمصحي

وقفت على الدار وقفة طويلة ، وذكرت حديث صاحبتى وإشفاقها على ، وما كان منها عند سفرى حين حذرتنى المخاطر ، ولكنى أظهرت لها زماع نفسى وجلدى ومضائى ، وغالبتها مغالبة عنيفة وقلت لها :

أحاولت إرشادى ؟ فعقلى مرشدى

أم استمت تأديبى ؟ فدهرى مؤدبى

هما أظلمما حالى ثمت أجليما

ظلاميها عن وجه أمرد أشيب

شجى فى خلوق الحادثات مشرق

به عزمه فى الترهات مغرب

كان له ديننا على كل مشرق

من الأرض أو ثاراً لدى كل مغرب

ومضيت إلى المديح ، فخلعت على صاحبي ما تعرف من هذه الصفات ، وذكرت له هذه القربى التى بيننا متقربا إليه بها ، ثم عدت فأرضيت كبريائى حين ذكرت له أنى إنما قصده لأتغنى مجده وأشيده بمآثره ، لا أنى فقير معدم قد أحوجنى إليه فقرى ، ولا أنه قد نبا بى بلدى ، فلى فى مصر كما قلت له قرابة سواه من اليمانية ، وإنما فضلته عليهم لأن لى فيه رأيا ومذهباً .

وما ضيق أقطار البلاد أضافني إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي
وأنت بمصر غايتي وقرابتي بها وبنو الأعمام فيها بنو أبي

ثم ذكرته بما سيكون عليه أمرى من خيبة مريرة وشماتة ممضة
إن هو أخلف ظني ولم يحقق رجائي ، وطلبت إليه أن يرعى حرمتي ،
ويكون عند حسن ظني ، وأن يفكر فيما سيفيده من شعري :

ولا غرو أن وطأت أكناف مرتعي لمهل أخفاضى ورفهت مشربي
فقومت لى ما اعوج من قصد همتى وبيضت لى ما اسود من وجه مطلبي
وهاتا ثياب المدح فاجر ذيوها عليك وهذا مركب الحمد فاركب

لكن عياشا لم يقبل على هذا الاقبال الذى كنت أرجوه وأطمع فيه ،
أو إنه قد خيل إلى هذا . لم أقطع منه أملى عند هذا اللقاء الأول ،
وصرت أقول له المدحة تلو المدحة وهو لا ينيلنى أملى ، إلى أن صرت
أغضب بعض هذا المديح اغتصابا ، وأتكلفه تكلفا ظاهرا ، حتى جاء
بعضه غثا لا أثر للحياة فيه ، بل جاء بعضه سمجا مضحكا . أقرأت
قصيدتى السينية :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا ورم بالصبر عقلا كان مألوسا

أرأيت مافيا من استعارات مضحكة وتكلف بارد ؟ كأنى إنما أردت
أن أتسلى بهذه الاستعارات الغريبة المضحكة . أنظر إلى قولى لصاحبتي :

لو تشهدن أقاسى الدمع منهمرأ والليل مرتجج الأبواب مطموسا

أو أنظر إلى قولى أصف حالى :

استنبت القلب من لوعاته شجرا من الهموم فأجنته الوساويسا

فاضحك ماشئت من هذه المزرعة التى صنعها الخيال فجعل القلب يزرع فيها ، ثم يسقى باللوعة ، ثم ينبت الهموم ، فاذا جاء وقت الحصاد لم يكن المحصول غير الوسائس !

ثم انظر إلى شاعرك هذا المسكين الذى يضطر أن يتسأخف حين يحاول أن يرضى ممدوحه بما يتكلف من المعانى ، ويصطنع من الصور ويتبدع ويخترع ، فاذا عرض لهذه الرعاية أو تلك الحرمة التى يدعيها دائماً الشعراء على من اتصلوا بهم ويحاسبونهم بعد ذلك عليها شبهها بالوقف المحبوس الذى لا يتغير وإن نال منه البلى ...

لى حرمة بك أمسى حق نازلها وقفاً عليك - فذلك النفس - محبوسا

ومن يدري فلعله كانت هناك صلة ما بين ملابسات حياتى فى هذه الأيام وبين هذه الاستعارة المضحكة ، فربما كنت أحب أن يجبس هذا الأمير على وقفاً من هذه الأوقاف الكثيرة عندكم بمصر ...
وقد عرفت أنكم تدرسون علم النفس الأدبى عندكم بكلية الآداب فلا تنس يا صاحبى أن ترجع إلى هذه القصيدة وتتأمل استعاراتها وتشبيهاتها فهى على كل حال تدلك على نفس متشاقلة ومزاج غريب ، ومن يدري فلعلك تستطيع أن تعرف تحت أى تأثير تراءت لى هذه الصور فيها ! ...

لم يجدنى يا صديقى هذا المدح الخالص ، ولم يجدنى هذا العتاب الذى اصطنعته ، وبدأت أستشعر اليأس ، فأخذت أثبت فى شعرى له بعض تأملاتى فى الحياة وحظوظ الناس ، محاولاً أن أكظم غيظى بهذه الفلسفة الساخرة التى تنتهى إلى التعريض به ... أقرأت قصيدتى البائية « عنت فأعرض عن تعريضها أربى » أرايت كيف قارنت بين هؤلاء الصبية الصغار الذين يلعبون فيتخذون من العصي خيلاً وبين هؤلاء لفرسان الكماة ؟ ولا تنس أن عياشاً كان قائداً كبيراً - فهؤلاء

الغلمان تبسم لهم الأيام دائماً وتستقيد لهم الحوادث ، فأما أولئك
السكامة فان الحوادث دائماً تصرفهم للنشر وتنال منهم :

وحادثات أعاجيب حساً وزكاً ما الدهر في فعله إلا أبو العجب
يطلبن قود السكامة المعلمين بها ويستمدن لفرسان على القصب

وأخذت في هذه الفترة أستعرض حياتي لأني كنت وقتئذ في مفترق
الطرق ، فصرت أنظر إلى نفسي ، وأتأمل حاضري ، وأسترجع ماضي .
كنت لا أدري أأصبت حقاً فيما أخذت به نفسي من الجسد والدأب
المتواصل والجهد العنيف ، أم كان ذلك مني حماقة وغفلة . أحسست أن
نفسي موشكة على التبدل في قرارة سحيقة من اليأس المطبق لولا بقية
من أمل كانت ترددها إلى الحياة ... والحزم والصبر ، والقضاء والقدر ،
والجد وطلب المجد واحتمال الجهد ... كل هذا كان في الحقيقة مبكى
لنفوسنا ، وثلجا لصدورنا ، وشفاءاً لغليلنا ... كان هذا الظل الهادي
الحزين الذي تستظل به نفوس الشعراء حين تتمسو عليهم حياة السؤال
والطلب ... أنظر كيف كنت أمسك بنفسي الجزعة فأطمئنها بما
أصطنع من حكمة وأدعي من شجاعة ... سأتلو عليك قسماً من هذه
القصيدة فلا تضيق به ، لأنه في الحقيقة قطع من نفسى السكدودة المتعبة
التي تلتمس لها مخرجاً من ضيقها ونسكدها في هذه الفترة ... ثم انظر
كيف أرتدى جبة هذا الفيلسوف الهادي الرزين وأنا في الحقيقة ساخط
حزين ... انظر كيف أفلسف الأشياء ثم أعبي عن فلسفتها ، ثم اعتذر
آخر الأمر اعتذاراً مليئاً بالحسرة والأسف ... لقد سخرت أخيراً من
عقلي الذكي الواسع الحيلة لأنه لم يستطع أن يرد عن نفسي حزنها ،
وسخرت من ذكائي وعرفت أنه ليس كل شيء في الحياة ، لأنه بغير
المال لا يظهر ذكاء ولا يمين فهم ... المال هو قطب الرحي يا صاحبي !
أليس كذلك ؟

ما يحسم العقل والدنيا تساس به
الصبر كاس وبطن الكف عارية
ما أضيع العقل إن لم يرع ضيعته
نشبت في لجج الدنيا فأثكني
أغضى إذا صرفه لم تغض أعينه
وان بليت بجسد من حزونه
ثم أقول :

بأى وخذ قلاص واجتياز فلا
ماذا على إذا ما لم يزل وترى
في كل يوم أظافيري مقلمة
ما كنت كالسائل الأيام مختبطا
بل قابض بنواصي الأمر مشتمل
مازلت أرمي بأمالى مراميهما
إذا قصدت لشأو خلت أنى قد

ما يحدث الصبر في الأحداث والنوب
والعقل عار إذا لم يكس بالنشب
وفر وأى رحي دارت بلا قطب
مال ، وأبت بعرض غير مؤتشب
عنى وأرضى إذا مالج في الغضب
سهلته فكأنى منه في لعب

إدراك رزق إذا ماجد في الطلب
في الرمي أن زلن أغراضى ولم أصب
تستنبط الصفر لى من معدن الذهب
عن ليلة القدر في شعبان أو رجب
على قواصيه في بدء وفي عقب
لم يخلق العرض منى سوء مطلبي
أدركته أدركتنى حرفة الأدب

وقلت لعياش بعدها بائسة أخرى « متى يرعى لقولك أو ينيب »
شكوت لها فيها الخيبة التي لقيتها بمصر ، وذكرت حنيني إلى أهلى ،
وأظهرت قنوطى من هذه اليمانية التي كنت أظن أن وشيجهتها ستمد لى
من أسباب الرزق ، وندمت على هذا السلف العظيم منهم الذى ثوى
بسفح المقطم ، قلت فيها :

وكم عدوية من سر عمرو
ها من طيء أم حصان
منى أن يعود لها حبيب
ولو بصرت به لرأت جريضاً
فأصبح حيث لانقع لصاد
ها حسب إذا انتسبت حبيب
بخيبة معشر وأب نجيب
منى شططاً وأين لها حبيب ؟
بماء الدهر حليته الشحوب
ولا نسب يلوذ به حريب

ثم قلت — واستسمحك في ذلك فما كرهت مصر ولكني كرهت
بعض من كان بمصر من قادتها وزعمائها —

بمصر وأى مأربة بمصر وقد شعبت أكابرها شعوب
وودأ سيها ما ودأته يحابر في المقطم بل تجيب
بل الحيان حيا حضر موت فخارها وإخوتها شبيب
فخولان فيحصب كان فيهم وفيها غالم عجب عجيب
مضوا لم يخز قائلهم فعال ولم يجذب فعالم جدوب

وذكرت في هذه المحنة صديقي أبا سعيد الشغرى وشكوت إليه ما ألقاه :

تحيفت الأمور أبا سعيد وضاق بأهله اللقم القريب
وأمسى الناس في عمياء ألوى بأنجمها وأشمسها الغروب
لهم نسب وليس لهم فعال وأجسام وليس لهم قلوب

وما زلت كاظما غيظي سالكا طريق التعريض والشكوى ، حتى بدأت
أتعجل اليأس وأفضله على هذه الصلات القليلة وهذه العلاقة الفاترة
بينى وبين عياش ، وفي قصيدتي التي عاتبته فيها :

« ذل السؤال شجى في الخلق معترض »

ترى عتابي يوشك أن ينقلب إلى هجاء حين وقفت منه موقف المستفهم
الذى يريد أن يلتقى صاحبه أو يلقاه صاحبه وجهاً لوجه بعيداً عن بطانة
السوء ... فاما صداقة ومال وإما منع وارتجال ... والحقيقة اننى لم
أكن أدري ماذا أصنع فلا أنا يائس ولا أنا قانع ... أنظر ماذا
أقول له :

من أشتكى وإلى من أغتدى وندى من أجتدى ، كل أمرى فيك منتقض
مودة ذهبت أثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

أظن عندك أقوام ؟ وأحسبهم لم يأكلوا في ما أعدوا وما ركضوا
يرمونني بعيون حشوها شرر نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضي وانتظار غد والكظم حتم على الدهر مفترض
لما فككت رقاب الشعر عن فكري ولا رقابهم إلا وهم حيض
أصبحت يرمى نباهاتي بخامله من كله لنبالى كلها غرض !

لم آل في عياش عتاباً ، هادئاً تارة وثائراً ساخطاً تارة أخرى ، أرجو
وأذكر ، وأهدد وأتوعد ، لكن عياشا ظل يطاولني مطاولة ثقيلة
محمضة ، فكنت أصبر وأسخر ، صبراً مصطنعاً ، وسخرية حزينة ، وبعثت
إليه بقصيدة رائية :

« صدقت لهما قلبي المستهتر »

تمنيت فيها لو صرح لي بعجزه حتى أقوم بعذره :

قد كدت أن أنسى ظماء جوانحي من بعد شقة موردى أو مصدرى
ولئن أردت لأعذرنيك مجلدا والعجز عندي عذر غير المعذر
ما إن أراني مادحاً ومعاتباً إلا وقد حررت فيك فحرر
واعلم بأني الوم غرس محامد تزكو فتجنّوها غداً في العسكر

كما بعثت له برائية أخرى ظهر فيها ضيق صدرى وخرجى ، فزفرت
أنفاساً حارة صادرة عن صدر معبأ محتبس . أنظر إلى بحر هذه القصيدة
فانك تستطيع أن تطيل إنشادها ما استطعت أن تطيل لأنها في الحقيقة
زفراقى الحارة الطويلة المتصاعدة :

ليس يدرى إلا اللطيف الخبير أى شىء تطوى عليه الصدور
ويقولون أنك المرء بالغيب محام عن الصديق تصور
فاذا جئت زائراً حجت وجهك عنى كآبة وبسور

فتطلق فى العناية أن البشر فى أكثر الأمور بشير
إن فى البشر روضة فاذا كان يبدل فروضة وغدير
فاقسم اللحظ بيننا إن فى اللحظ لعنوان ماتجن الصدور

ولست أدري أكان من الخير أن يطول إعراض عياش وبخله أكثر
مما طال فأقول فيه أكثر مما قلت ، أم كان من الخير لى وله أن ينتهى
الموقف عند حد ، لأنى بعد ذلك صرت أسخر منه سخرية لا مداراة
فيها ولا خداع . أقول له من مقطوعة :

إن كنت فى المنع ذا صبر وذا جلد فلست فى الذم ذا صبر وذا جلد
وأقول من أخرى :

كم ماجد سمح تناول جوده مظل فأصبح وجهه نائله قفا !
ومضى تسعة أشهر فقلت :

لاتنس تسعة أشهر أنصيتها دأباً وأنصتني إليك ونيفاً
بقصائد لم يرو بحرك وردها ولو الصفا وردت لفجرت الصفا

واكمل العام ، ومضى الأضحى والفطر ، لكن أملى وكان صائماً
هو الآخر لم يفطر ! ووضعت الحامل ماتحمل لكن رجاء عياش
لم ينتج بعد ، فقلت :

العيد والأضحى قد انسلخا لى أمل بيناك صائم لم يفطر
عام ولم ينتج رجاك وإنما تتوقع الحبل لتسعة أشهر
جد لى ببحر واحد أغرقك فى مدح أجيش له بتسعة أبحر

وأخيراً نخلع هذه الثياب الجميلة التى وضعناها على تلك الدمية ،
ونجردها منها لنلبسها ثياباً أخرى سداها ولحمها من الهجاء ، وبعد أن
كانت الدمية إلهاً صغيراً نعبده تصبح شيطاناً نسبه ونرجه !

وربما ضحكت منى في هذا الفصل الثالث من الدراما التي يجب الشعراء أن يمثلوها دائماً مع ممدوحهم ، حين ترانى أمسخ أحياناً هذه الدمية مسخاً مزرياً يثير الضحك ، وأحياناً ترانى مثل هذا الثعلب الذي ادعى مرارة العنب بعد أن أخفق في الوصول إليه ، وأحياناً أخرى ترانى في صورة الضعيف المبتئس الذي لا يملك إلا دعاء كدعاء العجائز ، كما ترانى أحياناً في صورة الطالب الذي يصفر في شارع الجامعة صغيراً مضطرباً حزيناً حين يقفل راجعاً من الكلية وقد عرف نتيجة الامتحان ! وكان أكثر ما قلت في هذا الفصل مقطوعات صغيرة كأن كل واحدة منها كلمة أسف ، أو قلب شفة ، أو هزة رأس ! مرة أقول :

ندبتك للجزيل وأنت لغو ظلمتك لست من أهل الجزيل
كلا أبويك من يمن ولكن كلا أبوى نوالك من سلول

ومرة أقول :

أيا من أعرض الله عن العالم من بغضه
ويا من بعضه يشهد بالبعض على بعضه
ويا أثقل خلق الله من ماش على أرضه
ومن عاف عليك الموت واستقذر من قبضه

وأدعو عليه فأقول :

ليسودن بقاع وجهك منطقي أضعاف ما سودت وجه قصيدي
وليفضحك في المجالس كلها صدرى كما فضحت يداك ورودي
ما كان خبرنى القياس بباطل عنكم ولكن جرت في التقليد

أرأيت إلى هذا القياس والتقليد في النوال ؟

وهكذا تشفيت منه وأسدل الستار وخرجت من مصر وأنا أقول هذه
اللامية المليئة من نفسي :

« أصب بحميا كاسها مقتل العدل »

على أنى قد أظلم عياشا إذا قلت لك إنه وحده كان سبب ابتئاسي
وخروجي من مصر ساخطا ، لأنى كنت حاولت أن يظهر أمرى مع غيره
في هذه الأثناء لكنى أخفقت أيضا .

ذلك أنه حين استفحل أمر الحوفية أقبل عبد الله بن طاهر إلى مصر
لقمع فتنة ابن السرى ، فسارعت وصنعت شعرا أمدحه به وأصور انتصاره
على ابن السرى ، واصطنعت في هذا الشعر ما كان يصطنعه شاعرا
مصر الكبيران معلى الطائى وصاحبه ابن عفير من السخرية في تصوير
الهزيمة ، وكان شعر هذين الشاعرين على أفواه الناس بمصر ، وأظن
أنه لم يبق في أيديكم منه إلا القليل النادر ... أنظر مثلا كيف
قلت في انتصار عبد الله بن طاهر على ابن السرى :

لعمري لقد كانت بمصر وقبعة	أقامت على قصد الهدى كل مائل
على الخندق الأقصى وما كان حوله	وما قد يليه من فضاء وساحل
رأى ابن السرى النصر أول يومه	وأودى بليث من أبى السرو باسل
لوين جموع ابن السرى وخيله	شمايط تترى كالنعام الجوافل
فلما رأى ألا محيص وأنه	كفاح الردى فى كل حق وباطل
توخوا أمان الأريحي ابن طاهر	فمن فارس يأتيه طوعا وراجل

وانظر كيف وصفت خروج ابن السرى الأعرج إلى بغداد أسيرا
بعد أن ظفر به ابن طاهر وكان ذلك عام ٢١١ هـ :

فأورده بغداد يهوى برجله	ذمول ترامى فى قلاص ذوامل
فأصبح قد زالت ظلال نعيمه	وأى نعيم ليس يوما بزائل ؟ !

لكن ابن طاهر لم يلق إلى بالا ، ولم يظهر بشعري حفاوة ، على حبه
للأدب وعلى أنه كان شاعرا يقدر الشعر ، ولكن يظهر أن ابن عفير
ألهاه عنا حتى لقد قال بعد خروجه من مصر « رأيت بمصر من عجائب الدنيا
ثلاثة أشياء : النيل والهرمين وابن عفير » وكنت حريا ألا أستياس
سريعا من ابن طاهر لو أنه بقي بمصر وقتا طويلا لكنه ما لبث أن
خرج إلى العراق سنة ٢١٢ هـ بعد أن استخلف على إمرة مصر عيسى
ابن يزيد الجلودى ، وكان على خراج مصر إذ ذاك صالح بن شيرزاد
الذى ظلم الناس وزاد فى الخراج ، فانقض عليه أهل الخوف من جديد
يتزعمهم عبد السلام بن أبي الماضى وكان على القيسية ، وابن الجليسي
وكان على اليمنية . وتغلب أهل الخوف على عيسى الجلودى وصالح
ابن شيرزاد ، وأكثروا فى أصحابهما التقتيل ، فلما بلغ ذلك الأمير أبي
اسحق (الخليفة المعتصم بعد) عزل عيسى عن إمرة مصر وولى مكانه
عمير ابن الوليد التميمي وكان ذلك فى رجب سنة ٢١٤ هـ .

حاولت فى هذه الأثناء أن أتغنى أشعار الحوفية وأصف وقائعهم ، وأسخر
وأتندر بالجلودى ، وأصور فراره ، فقلت فى ذلك شعرا تندرت فيه حين
ادعيت أن الجلودى هذا نزل ضيفا على الحوفية فأكرموه وقروه ولكنهم
قروه شيئا غير الطعام والشراب :

فنزلت بين ظهورهم أشرا	فقروك ثم الطعن والضربا
ضيافاً ولكن لا أقول له	أهلاً بمشواه ولا رحباً
فى حيث تلقى الرمح يشرع فى	نطف الكلى والمرهف العضبا
من حى عدنان وإخوتهم	قحطان لا ميلا ولا نكبا
ورأيت مركب ما أردت بهم	صعبا ومغمز عودهم صلبا

ولكن ما لبث أن جاء الأمير أبو اسحاق إلى مصر ، وانتصر على الحوفيين
بعد أن بدأت أشيد بانتصاراتهم ، حاربهم فى بلبس ووضع السيف
فى رقابهم حتى كاد يفنيهم ، ثم دخل الفسطاط وجمع أعيان المصريين

وأخذ العهد عليهم ، ثم خرج إلى الشام في غره المحرم سنة ٢١٥ هـ
ومعه جمع كثير من الأسرى وهم في ضر وجهد حفاة أمام الخيالة ،
وقبل خروجه ولى عبدويه بن جبلة .

وأنظر فأرى زعيمى الخوفية مصلوبين بالحيزه صلبهما المعتصم ، وأجد
المعلى الطائى يصور هزيمة الخوفيين تصويراً بديعاً رائعاً ، فانظره كيف
تندرد صور الجليسى وهو مصلوب فانك لا شك ستذكر بشعر المعلى هذا
بعض شعري فتعرف تأثرى بهذا الشاعر المصرى ، فمعلى يرى الخشبة
التي صلب عليها الجليسى أو عبد السلام بن أبى الماضى جواداً لكنه
جواد لا يتحرك ولا يسير ، ولا يأكل ولا يشرب ، لأنه جواد صنعه
النجار ... قال :

إن الجليسى غداً سابقاً	في حلبة الجسرين قد قصبا
على طمر ماله أول	من صنعة النجار قد شذبا
وليس يدري عند إجماعه	من أثمر الطرف ومن لبيا
لو كان من بعض نخيل القرى	كان أبو القاسم قد أرطبيا
كسا أبو إسحق أوداجه	أبيض لا يعتب من أغضبيا
وقد سقى عبد السلام الردى	فكيف بالله إذا جربا ؟

ولقد أعجبني حقاً قوله : « لو كان من بعض نخيل القرى » وأنت
تذكر أنى قلدت هذا الشعر حين وصفت صلب بابك الخرمى وما زيار
فادعيت أن هذه الخشبة التي صلب عليها كل منهما جواد لا زال عليه
فارسه :

بكروا وأسروا في متون ضوامر	قيدت لهم من مربوط النجار
لا يبرحون ومن رأيهم خالهم	أبدأ على سفر من الأسفار

وتتأبعت هذه الحوادث الدامية وما انفك هذا الأمل مستبدأ بي بعد
أن خاب ظنى في المطلب الخزاعى وعياش بن لهيعة الحضرمى وعبد الله

ابن طاهر ، وعمير بن الوليد ، وبعد أن خاب ظني كذلك في الحوفية
وفي الأمير أبي اسحق حين جاء إلى مصر وأردت أن أكون شاعره ...
ووجدت نفسي لا زلت غفلا بعد هذا الدؤوب المتصل وبعد هذه الغربة
الطويلة ، وبدأت أفكر في العودة إلى أهلي ، ويئست من مصر وأهلها ،
فلم يكن سخطي في الحقيقة من عياش وحده بل من غيره أيضاً .

وأخيراً ودعت مصر بهذه اللامية : « أصب بحميا كاسها مقتل
العدل » وصفت فيها تعذر الرزق على مصر ، وصورت فيها ضيق
نفسى ، وكان هذه القصيدة في الحقيقة اعتذار أقدمه قبل عودتي إلى
أهلي خائباً تائباً ! اقرأ هذه القصيدة مرة أخرى فستجد أنى حاولت
أن أرضى نفسي بما قلته في مصر ، بل حاولت أن أرضى شاعريتي
لكي أظهر المتأدين من المصريين أنهم حين ضيعوني إنما ضيعوا
شاعراً كان جديراً منهم بالعناية والاكرام ... أنظر كيف وصفت
الحجر في هذه القصيدة :

أصب بحميا كاسها مقتل العدل تكن عوضاً إن عنفوك من التبل
وكأس كعسول الأمانى شربتها ولكنها أجلت وقد شربت عقلى
إذا عوتبت بالماء كان اعتذارها لهيباً كوقع النار في الحجر الجزل

فهل رأيت إلى الحجر كيف شربتها وكيف شربتني ! وهل رأيت إلى
عتابها بالماء فاعتذرت بهذا اللهب المتوهج منها !

إذا هي دبت في الفتى خال جسمه
لما دب فيه قرية من قرى النمل
إذا ذاقها وهي الحياة رأيته

يعبس تعبىس المقدم للقتل
وقد أكون في هذا دون الأعشى ودون الأخطل وربما دون الحسن
أيضاً ، لكنى بعد ذلك قلت :

إذا اليد نالتها بوتر توقرت

على ضعفها ثم استقادت من الرجل

ويصرع ساقها بانصاف شربها

وصرعهم بالجور في صورة العدل

فدييب الخمر في الجسم وتشبيهه بدييب النمل ، وهذا التعبير الذي يبدو على وجه شاربها حين يذوقها ربما كنت تابعاً فيه ، وكذلك ثأر الخمر حين تمزجها بالماء فتضعفها وتنال منها فتتوقر وتستضعف وتنتظر فرصة موالية ، حتى إذا ثمل الشرب وجاءوا لينهضوا استقادت منهم فتأرت لنفسها ، لأنها تثقل سيقانهم وتضعفها عن المشي فيتعثرون ويتخبطون... كل هذا قد أكون تابعاً فيه كذلك ، لكن لديك بعد هذا في صفة الخمر عدل وجور ومن العدل يخرج نوع من الجور ، ومن الجور يخرج نوع من العدل ، وهذا من خصائص فني فيما أظن .

وأخيراً تركت مصر إلى ميدان آخر فيه وقائع ربما كانت أعظم خطراً وأجل أمراً ، فهناك على الشغور حرب بين المسلمين والروم ، فإلى حميد الطوسي وصاحبه أبي سعيد الثغري ، وإلى بابك ومازيار وأبي دلف العجلي ، بل إلى غيرهم من قواد المسلمين ، وإلى الخليفة المعتصم نفسه فقد أكون شاعره...

هذه قصتي في مصر وهي حلقة من حلقات صراع ملأ حياتي ، ولي مع أبي المغيث موسى الرافقي الذي كان يلي الشام في هذه الأثناء قصة كقصتي مع عياش تماماً ، تستطيع أن ترجع إلى شعري لتعرفها ، أما ما سأحدثك به الليلة المقبلة فقصتي مع ابن طاهر حين رحلت إليه وهو أمير خراسان فإلى ليلة أخرى إن شاء الله .

مع ابن طاهر في خراسان

قال أبو تمام :

وإنما أردت أن أذكر لك قصتي مع ابن طاهر لتعرف كيف كان وقع شعري في نفوس الأدباء وماذا كانوا ينكرون على منه ، ولأنه فوق هذا كان امتحاناً كهذا الامتحان الذي تعد له ، وكان فيه كذلك محلفون ، لكنهما كانا اثنين فقط من الشيوخ الجلة أيضاً ؛ أما أحدهما فكان أبا سعيد الضرير ، وأما الآخر فكان أبا العثميل شاعر ابن طاهر ، وكان الأمير جعلهما على خزنة كتبه وأمر ألا يدخل عليه شاعر إلا بعد إجازة من هذين الرجلين .

ولا يتسع وقتنا لأحدثك عن هذه الرحلة الطويلة الشاقة من الشام إلى خراسان ، وحين وصلت خراسان وعلمت ما علمت من وجوب تقديم مدحتي لأبي سعيد ولأبي العثميل وانتظار رأيهما واجازتهما حزنت ، وحدثتني نفسي : ترى ماذا يكون مصيري وسمعتي لو رفض هذان العالمان بائيتي ؟ وما عهدت شاعراً مثلي يمتحن مثل هذا الامتحان ! لكنني جئت من الشام فهل أقفل راجعاً دون أن ألقى الأمير ؟ فلا قبل هذا الامتحان على مضض ، كما ستقبله أنت على مضض ! وجال في نفسي أن أبا سعيد قد يكون متعصبا على مثل ابن الاعرابي .. وكانت فترة عصبية حين ظلت أنتظر رأيهما . ولم يفتني أن أصادق أبا العثميل ،

فأما أبو سعيد فلم ينلني من نفسه شيئاً ! ومضى وقت ولم أستدع ، فزاد ذلك من خوفي . أخيراً كتبت لأبي العميشل أستعجزه الحكم وأبين له عن قلقي ، وقلت إنه لولا ثقتي بحكم الأمير وعدله لشككت آمالي بأسرها :

ليت الأطباء أبا العميشل خبرت خبراً يروى صاديات الهام
إن الأمير إذا الحوادث أظلمت نور الزمان وحلية الأيام
والله ما يدري بأية حالة ينمى مجاوره على الأيام
أبما يجامعه لديه من الغنى أم ما يفارقه من الاعدام ؟

وذكرت الصحيفة التي فيها المدحة وإبطاءهم في الحكم عليها فقلت :
وأرى الصحيفة قد علتها غبرة فطرت لها الأراح في الأجسام

وبقيت أنتظر ، وبقيت الصحيفة ينظر فيها من ينظر ، حتى جاءني من استدعاني إلى خزانة الكتب فأسرعت ، فاذا أبو العميشل وأبو سعيد ، وإذا أبو العميشل يقول : انما فضلنا أن تجلس بيننا وقتاً قبل أن نجيز القصيدة فنقرؤها معاً بيتاً بيتاً ، فقد يوجه إليك أبو سعيد بعض النقد فان أقنعتته دخلت على الأمير — حفظه الله — وأنشدته وعدت من عنده سعيداً مرفوراً . وجلست بينهما كما يجلس الطالب في لجنة من لجانكم ، فابتدرني أبو سعيد بقوله :

— يا أبا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟
وكان بدءاً صعباً على نفسي فلم أتمالك أن قلت له على الفور وعلى طريقتي في الأداء :

— وأنت يا أبا سعيد لم لا تفهم من الشعر ما يقال ...
وكأنني ألقمته بهذا الجواب حجراً ، ورأيت أبا العميشل يضحك من تحت ذقنه ضحكة خبيثة ، وأحسست بشيء من الغبطة لهذا الجواب الحاضر ، وان كنت أحسست كذلك بشيء من الخوف لأن مثل هذا

الحرج لرجل كأبي سعيد لم يكن ينبغي ... حذار يا صديقي من مثل هذه الأجوبة اللاذعة إذا عقد لك امتحانك ! ولكنني أسرعت فطردت الخوف عن نفسي وقلت لها : ليكن ما يكون فيجب أن يعرف هذا الشيخ ما أقول لا أن أقول أنا ما يعرف ... ومضت لحظة رأيت فيها أبا سعيد يبلع ريقه ، ثم ما لبثت أن سمعته كأنه يخاطب نفسه :
— مطلع والله غريب منكر :

هن عوادى يوسف وصواحيبه فزماً فعزماً أدرك النأى طالبيه

فقلت على الفور :

— لم أقل « النأى » ولكنني قلت « أدرك السؤل طالبيه »

فقال أبو سعيد :

— بدأت بالكناية عن النساء ولم يجر لهن ذكر بعد ... هذه واحدة . ثم قلت « عوادى » أى صوارف كما يقال عدانى عنك كذا أى صرفنى ، أردت هن صوارف يوسف ، وصوارف ها هنا ليست قائمة بنفسها لأنه يحتاج أن يعلم صوارفه عماذا . ربما أردت صوارفه عن تقاه أو هداه أو عن عزمه مثلاً حتى هم بالمعصية . واللفظة القائمة بنفسها أن لو قلت مثلاً « فواتن يوسف » أو قلت « شواغف يوسف » أو نحو ذلك ، وإنما يتم معنى الكلمة بمثل هذه الألفاظ . وهذه واحدة أخرى . ثم إنك ألحقت التنوين بيوسف وهذه ثالثة . فأنت جئت بثلاثة أخطاء متتابعة . وتمتت البيت بعجز لا يليق بصدوره وهو أردأ معنى من الصدر وذلك قولك « فعزماً فقديماً أدرك النأى طالبيه »

قلت :

— ولكنني ذكرت لك أن الرواية « السؤل » لا النأى .

قال :

الموجود فى الصحيفة « النأى » لا « السؤل » ، واذن فيصير حمل معنى البيت : هن صوارف يوسف فاعزم فقديماً أدرك البعيد طالبيه . وهذا

كلام لا يشابه بعضه بعضاً ولا يلائمه ، وإنما كانت ألفاظه ومعانيه تتشابه
أن لو قلت :

هن عوادي يوسف وصواحبه فلا يعدونك مطلب أنت طالبه

أو « فلا يعدونك العزم فيما تطالبه » أي هن صوارف يوسف عن
عزمه فلا تنصرفن أنت عن عزمك ومطلبك لعذهن ... وكنت كلما
هممت بالرد عليه نظر إلى أبو العميثل نظرة أفهم منها أمره لي بالسكوت
والتريث فأسكت وأتريث . وسكت أبو سعيد فقال أبو العميثل ...

— أرى أنك أسرفت يا أبا سعيد ! فما أظنك تجهل أن الاضمار قبل
الذكر ليس عيباً إذا كان المعنى مفهوماً ، وأبو تمام أخذ معناه من
الحديث المروي عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال في مرضه
الذي انتقل فيه وهو يعني النساء « انكن صويحبات يوسف » ولولا
أنك أذنت لبعض الأدباء الموجودين بحضرة الأمير — أعزه الله —
باستنساخ القصيدة لما وقع خطأ في النسخ ، فقد رأيتها عند بعضهم « هن
عوادي يوسف » ورأيتها عند البعض الآخر « هن عوادي يوسف »
على الاستفهام ، وربما كانت هذه الرواية أحسن في السمع وأنفى للعيب .
قلت :

— كلا، وإنما قلت « هن » وهي روايتي على ما فيها من عيب إن كان
ذلك عيباً ، وهو أحب إلى من الوجه الآخر مع انتفاء العيب فيه ...
فقال أبو العميثل :

— وأما لحاق التنوين بيوسف فليس بعيب أيضاً لأن الأصل في
الأسماء كلها الصرف ، ورد الاسم في الشعر إلى أصله ليس عيباً فاحشاً
وهو من أحسن الضرورات ... وأما « عوائد » فتستطيع أن تجعله من
عاده يعوده إذا طرقة وزاره ، وعلى ذلك فسروا قول زهير « فعادك
أن تلاقى العدا » أي صرفك ، فعلى هذا يكون « عوادي » غير
مقلوب من « عوائد » ويكون كل منهما على حياله .

وهمت بالتكلم لكن أبا سعيد مالبث أن قال :

— أى تكلف ظاهر ! إنك يا أبا العميشل تحاول أن تأخذ بيد صاحبك حتى وإن كان فى ذلك تغيير لروايته ومعناه . أى معنى للزيارة هنا إذا جعلت « عوادى » من عادة يعوده إذا زاره ؟ فأما ما ذكرته من قول زهير « وعادك أن تلاقىها العدا » فقد يجوز أنه أراد عادك بمعنى اعتادك وراجعك ، أى عادك ماصرفك عن تلاقىها ، وأوله على ما أذكر « فصرم حبلها إذ صرمتها » . وكأن أبا العميشل انقطع لكنه عاد فقال :

— يمكن أن تكون « عوادى جمع عدو ، جمع على فواعل وهو شاذ جرى فى المثل على فاعلة فهو جمع عادية ، والعادية العدو ، وهذا من قولهم عدا فلان على فلان عدواً وعدواً ، وقد قرأ الحسن (ويسبوا الله عدواً) بضم العين والبدال واكتفى بالواحد من الجمع ، فيكون على هذا « عوادى يوسف » الذين عدوا عليه أى ظلموه بما فعلوا فى حقه . فقال أبو سعيد :

— يا لله ! أكل هذا لتنجى صاحبك مما تورط فيه !؟ إنه تخريج بعيد وتمحل ظاهر ...

وكنت فى كل هذا مأخوذاً لأن الأمر لن ينتهى إذا ظل هذان الرجلان يتجادلان على هذا النحو ، وفكرت فى موقف أ. سعيد وكيف أذن لبعض الأدباء أن يستنسخ القصيدة قبل أن أدخل بها على الأمير ، وضايقتنى هذا التصحيف الذى وقع فيها عن قصد أو غير قصد ، وأطرقت مستيئساً حتى انتبهت على صوت أبى سعيد وهو يقرأ :

إذا المرء لم تستحلس الحزم نفسه فسدروته للحادثات وغاربه

قلت :

— لم أقل « تستحلس » ولكنى قلت تستخلص ...

قال أبو سعيد :

— الذى فى الصّحيفة « تستحلّس » وهى أشبه بمذهبك ، وهى استعارة بعيّدة مصنوعة . أردت أن تقول إذا المرء لم يجعل الحزم مقدّمة له كالجلس يلقى على ظهر البعير ثم يوضع الرجل عليه فمقدم سنامه للحادثات . أليس كذلك ؟

قلت :

— إنما قلت « تستخلص » فأما إذ جعلتها « تستلّحس » وفسرتها على ما فسرتها به فأنت وما تريد .

قال أبو العميثل :

— هبها كما تقول فلم تنكرها أبا سعيد ؟ أما والله إنه لبديع أن يجعل أبو تمام للحزم جلساً يقتعده المرء فلا تتعرض ذروة هذا البعير الجديد إلى الحادثات ! ألا ترى أنه فى هذا بديع ؟

ثم نظر إلى أبو العميثل وقال كأنه يغىظ صاحبه :

— أحسنت يا أبا تمام ، والله ما يأتى بمثل هذا غيرك ...

ولم يقل أبو سعيد شيئاً ولكنه أنشد البيت التالى له :

أعاذلتى ما أحسن الليل مركباً وأحسن منه فى الملمات راكبه

قلت :

— هذا شيء عجيب حقاً ! فهذه القصيدة قد حرفت حتى ليخيل إلى أن

كل بيت منها تناوله تصحيف أو تحريف ، فأنا لم أقل « ما أحسن الليل » ولكنى قلت « ما أحسن الليل » بالشين المعجمة .

فقال أبو العميثل :

— كلاهما حسن جيد .

فقال أبو سعيد :

— أردت التهويل أم التهوين ؟

قلت :

— التهويل ، ولا شأن لى بمن روى « ما أحسن الليل » .

قال :

— ولكنه لم يسمع مركب خشن ، ولو عنيت التهويل لقلت :
 ما « أوعر الليل مركباً » أو قلت : « ما أصعب » أو نحو ذلك .
 وكدت أتميز من الغيظ لأن تناول الشعر على هذا النحو يفسده
 ويجعله أشبه بجثة هامة قد شوهها مبضع جراح فجعلها قطعاً متناثرة
 لا أثر للحياة فيها ولا يتصل بعضها ببعض الآخر ... وقلت لنفسى :
 خير لى أن أرسب فى هذا الامتحان وأقل راجعاً من حيث أتيت على
 أن أرى بعينى تمزيق هذه الجثة ... وفيما أنا أهم بالانصراف مستأذناً
 وقد عقد الحزن لسانى إذ دخل علينا شاعر من شعراء الأمير يعرف
 بالرياحى ، وكنت قد لقيته وتعرفت إليه وكان قد استنشدنى واستنشدته ،
 فخيى وجلس ، ثم قال :

— ما لكم أبطأتم ! إن الأمير — أعزم الله — ينتظر دخول أبى تمام
 ونحن ننتظر معه ، ولم نكن نظن أنه سيتأخر إلى هذا الوقت .
 فقال أبو العميث :

— إن أبا سعيد يوقفنا عند كل بيت وقفة طويلة ، وماذا أنت
 قائل إذن إذا عرفت أننا لم ننجز منها إلا أبياتاً ثلاثة !
 فصاح الرياحى :

— ويلي ! أبياتاً ثلاثة وهى فوق الأربعين ! فيم إذن كنتم ؟
 فلن يدخل أبو تمام على الأمير — أعزه الله — إلا فى عام قابل !
 لولا قرأتكم القصيدة كما أقرؤها لأجزتموه للتو .
 ثم أخذ ينشد بصوت عذب :

هن عوادى يوسف وصواحبه
 إذا المرء لم تستخلص الحزم نفسه
 أعاذلتى ما أخشن الليل مركباً
 ذرينى وأهوال الزمان أفانها
 فعزماً فحزماً أدرك السؤل طالبيه
 فذروته للحادثات وغاربه
 وأخشن منه فى الملمات راكبه
 فأهواله العظمى تليها رغائبه

ألم تعلمي أن الزماع على السرى
دعيني على أخلاقى الصم للتى
فان الحسام الهندوانى إنما
أخو النجج عند الحادثات وصاحبه
هى السوفر أو سرب ترن نوادبه
خشونته مالم تفلل مضاربه

وحاول أبو سعيد أن يستوقفه ولكنه استمر ينشد :

وقلقل ناي من خراسان جأشها
وركب كأطراف الأسنة عرسوا
لأمر عليهم أن تتم صدوره
على كل رواد الملاط تهدمت
رعتة الفيافي بعد ما كان حقبة
فأضحى الفلا قد جد برى نخضه
فكم جزع واد جب ذروة غارب
فقلت اطمأنى أنضر الروض عازبه
على مثلها والليل تسطو غياهبه
وليس عليهم أن تتم عواقبه
عريكته العلياء وانضم حاله
رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
وكان زماناً قبل ذاك يلاعبه
وبالأس كانت أتمكته مذاربه

وخيل إلى أنه لم يقطع نفسه في هذه الأبيات ، وكأنه كان في نفسى وأنا أقول هذا الشعر لفرط تأثره به ، وإعجابه بمعانيه ، ثم رأيتـه يصيح :

— ألا تعجبون ، ألا تطربون ؟ أى نبع يتدفق ، وأى سحر حلال هذا الذى يقول أبو تمام ! ألا والله إن هذا هو الذى أضلته الشعراء ! وأمن أبو العميثل على قوله ، وأحسست بنفسى ترتد إلى ، ورأيت هذه الجثة تعود فتلتئم أجزاؤها وتنفض فيها الحياة ... ورأيت أبا سعيد قد تداخل في نفسه ، ثم سألتنى الرياحى :

— أين منشدك يا أبا تمام ، هذا الغلام الذى رأيتـه معك ؟

قلت :

— الفتح ! هو هنا ينتظرنى فى خارج ...

قال :

— أدخله معك يا أبا تمام حين تدخل على الأمير ، فان شعرك

لا تعرف روعته إلا إذا ألقى إلقاءً حسناً ، فانه عندئذ يقع من النفس أحسن موقع ... إن له لجرساً عذباً .

فقال أبو سعيد :

— ماذا تقصد بهذا الجرس العذب ؟

فقال أبو العميثل :

— نعم يا أبا سعيد ، فبدل أن تقف عند « هن » هذه ولا تراها إلا ضميراً تقدم قبل الذكر وتقوم وتقعده لهذا ، يريدك الرياحي أن تصغى لموسيقى الكلام وما يشيره في النفس ، وتنظر لمعنى الشعر ومعانيه مجموعاً غير مفروق ، فأما أن يكون نظرك فيه قاصراً على صحة النحو أو صحة المعنى فهذا ما ينبغي ألا نسرف فيه كما أسرفنا وقد آن الأوان لهذا ...

فقال أبو سعيد :

— موسيقى الشعر ؟ وما موسيقى الشعر ؟

فقال الرياحي :

— أصغ إلى جرس هذه النون في « هن » فلا شك أن له رنيناً يملأ السمع ، ولو استقام لأبى تمام الوزن وأتى بـ « يوسف » غير منون لأخفق وذهبت روعة هذا الجرس النوني العذب الذى جاء بعد الجرس النوني في « هن » ، والدليل على أنه قصد إليه إتباعه هذين الجرسين النونيين ، أو هذين الرنينين العذبيين ، بجرس مماثل في الشطر الثانى من البيت حين قال (فجزماً فعزماً) فاستقام له موسيقى شملت البيت كله ، فأنت حين تنشده البيت إنشاداً حسناً سيظهر لك هذا ، وربما ظهر لك أكثر من هذا حين تتأمل ما يوحى به جرس هذه القوافى الطويل الممتد الذى ينتهى بباء تليها هاء ساكنة كأنها تنفس متعب مكدود ... هذه الهاء قد لا تكون عندك وعند الذين ينظرون في الشعر نظرك أكثر من ضمير يعود على ما يعود عليه ، أما عندنا فهذه الهاء ترجيعة موسيقية رائعة لا أدري كيف أصفها لك ...

وأخذ الرياحي ينشد من جديد :

أعاذلتنا ماأخشن الليل مركباً وأخشن منه في الملمات راكبه
ذريني وأهوال الزمان أفانها فأهواله العظمى تليها رغائبه

وظهر في صوت الرياحي وهو يردد هذين البيتين اللوعة والأسى حقاً ،
أو هذا ما خيل لي على الأقل ، وظهر في صوته كذلك هذه المعاناة التي
يشيرها هذا النداء الطويل ، حتى لكان هذه الهاء الأخيرة تنفس
الصعداء بعد سير طويل متعب ... ولا أدري أتاثر أبو سعيد بهذا
أم لم يتأثر ، ولكنه استجاب إلى رغبة الرياحي وأبي سعيد لتجاوز القصيدة
وندخل على الأمير ...

ودخلت على الأمير وحوله جماعة من الشعراء والأدباء ، وأخذت في
الانشاد ، فلما وصلت إلى قولي أصف الرحلة إليه :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل رواد الملاط تهدمت عريكته العلياء وانضم حالبه
رغته الفياقي بعد ما كان حقبة رعاها وماء المزن ينهل ساكبه

صاح الشعراء بالأمير :

— ما يستحق مثل هذا الشعر إلا الأمير أعزه الله !

وقال الرياحي :

— لي عند الأمير أعزه الله جائزة وعدني بها وهي له جزاء عن قوله .

فقال الأمير :

— بل نضعفها لك ونقوم بالواجب له .

ولما فرغت من إنشادها نثر على الأمير ألف دينار ، ولكنني لم أمسسها
فلقطها الغلمان ، فلما رأى ذلك وجد على ونهض وهو يقول : يسترفع

عن برى و يتهاون بما أكرمته به ؟ ولا أدري لماذا فعلت ما فعلت ،
ولعلى أردت أن أقول لأبى سعيد هأنذا يا أبا سعيد فى هالة من الأدباء
والشعراء يصيحون لفرط إعجابهم بشعرى ، وها هو الأمير ينثر على ألف
دينار ولكنى لا أسسها !

وعدت إلى الخان الذى كنت نازلا فيه وأنا مغتبط لما نالنى من تقدير
وإعجاب ، حزين لما فعلته مع الأمير ، وعرفت أنى لن أجد بعد ذلك عنده
نفعا . وصرت أبعث إليه بالمدحة تلو المدحة ، وأستشفع بمن حوله ، لكنه
صار لا يبعث لى إلا بالشىء التافه القليل كأنه أراد أن يلقنى درساً !

وأقبل الشتاء فبعثت إليه بقصيدتى اللامية :

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل ولا قشيب فيستكسى ولا ثمل

بكيت فيها المصيف ، وكنت فى الحقيقة أبكى شيئاً آخر ، وذمت فيها
الشتاء وكنت كأنما أذم برداً غير برده ، بل إنى صرحت فى آخرها بقولى :

ما للشتاء وما للصيف من مثل يرضى به السمع إلا الجود والبخل

ولكن الأمير ابن طاهر مضى فى إعراضه ، فلم يأذن لى بما أردت منه ،
ولم يأذن لى بالارتحال ، ووجدت أن نفسى كاد يأتى عليها هم ثقيل
فتسللت لأروح عنها ، وعمدت إلى العبت والحجون جهراً بعد أن كنت أفعل
ذلك فى السر إبقاء على رضى الأمير ، وفى مدينة نيسابور أو أبرشهر كما
كانت تسمى بالفارسية عرفت مغنية مفرطة الحسن رخيمة الصوت ،
فتعشقتها وقضيت معظم ليالى عندها ، وكان عبد الله بن طاهر كما سأل
عنى وعلم إنى عندها يزدداد تغيره على ، وينقص مقدارى عنده . أقرأت
قولى لها :

أيا سهرى بليلة أبرشهر زمت إلى يوماً فى سواها
سمعت بها غناء كان أحرى بأن يقتاد نفسى من عناها

ومسمعة تقوت السمع حسناً ولم تصممه لا يصمم صداها
مرت أوتارها فشجت وشاقت فلو يستطيع سامعها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدي فلم أجهل شجاها

ثم أعود إلى الشكوى فأبعثها إليه لعله يأذن لي بالسفر فلا يحينني ...
أقرأت هذه الميمية التي أقول فيها :

صريع هوى تغاديه الهموم بنيسابور ليس له حميم
غريب ليس يؤنسه قريب ولا يؤى لغربته رحيم

أقول :

رجاء ما يقابله رجاء هو اليأس الذي عقباه شوم
وقد فارقت إذ فارقت داراً بأرض الشام حف بها النعيم
هي الوطن الذي فارقت فيه وفارقتي المساعد والنديم
ألومك لا ألوم سواك دهرأ قضي بي بالذي يقضى سدوم
وفي الدنيا غنى لم أنب عنه ولكن ليس في الدنيا كريم !

ويشتد غيظي كلما أمعن الأمير في النأى والاعراض فتزداد حدة
لساني فأقول له من أخرى :

صبراً على المطل ما لم يتله الكذب وللخطوب إذا ساحتها عقب
على المقادير لوم إن رميت بها من قادر وعلى السعى والطلب
يا أيها الملك النسائي بغرته وجوده لمراعى جوده كشب
ليس الحجاب بمقصر عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

و كنت أحياناً أبطن هذه السخرية الحزينة التي رأيتها في شعري

لعياش ، ففى ذات يوم اجتمعنا بباب الأمير من بين شاعر وزائر فجبنا جميعاً ، فكتببت إليه أداعبه :

أيهذا العزيز قد مسنا الضر جميعاً وأهلنا أشتات
ولنا فى الرحال شيخ كبير ولدينا بضاعة مزجاة
قل طلابها فأضحت خساراً فتجاراتنا بها ترهات
فاحتسب أجرنا وأوف لنا الكية لى وصدق فأننا أموات

ولكن الأمير مع ذلك لم يأذن لنا ، وسمعت أنه حين قرأها قال لمن حوله : قولوا لأبى تمام لاتعاود مثل هذا الشعر فان القرآن أجل من أن يستعار شيء من ألفاظه للشعر .

وأخيراً دخل عليه أبو العميثل وقال له : أيها الأمير أتهاون بمثل أبى تمام وتحفوه ؟ فوالله لو لم يكن له من النباهة فى قدره ، والاحسان فى شعره ، والشائع من ذكره ، ماله لكان الخوف من شره والتوقى لذمه ما يوجب على مثلك رعايته ، فكيف بنزوعه إليك من الوطن وفراقه للسكن ، عاقداً بك أمله ، معملاً إليك ركابه ، متعباً فيك فكره وجسمه ، وفى ذلك ما يلزمك من قضاء حقه حتى ينصرف راضياً . ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه إلا قوله :

يقول فى قومس صحبى وقد أخذت منا السرى وخطى المهرية القود
أطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ؟ فقلت كلا ولكن مطلع الجود
لكان خليقاً ببرك ورعايتك .

فقال عبد الله :

— لقد نهيت فأحسننت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبي .

ثم أمر فدعانى ونادىنى طول يومه ، وأمر لى بألفى دينار وخلع كثيرة ، وأعطانى خاتماً فى يده كان له قدر .

وسافرت من عنده ، ولكن البرد حازني وأنا بأذربيجان ، فخرجت على صديق هناك هو أبو الوفاء بن أبي سلمة وكانت لديه خزانة كتب تحوى كثيراً من دوواين الشعر ، فأمضيت الشتاء فيها وجمعت كتاب الحماسة الذي تعرفه .

هذه يا صديقي قصتي مع ابن طاهر ، أو هذه حلقة من حلقات الصراع الذي كان بيننا وبين هؤلاء الممدوحين .

فأنت ترى أنه لم يكن شراً كله ، لأنه كان في كثير من الأحيان يحفز النفس ويشير الحس ، ويشعر بالحياة . فهل لا يزال المديح عندك في صورته القديمة التي تدل على ابتذال النفس ؟

ولولا أني أعرف أن مثل أحاديثي هذه قد تفسد عليك أمرك ، وتخل بنظام رسالتك ، لزرتك زورات أخرى ألقى اليك فيها بشجون نفسي وأحدثك في غير منهج أو قيود ، ولكني مشفق عليك ، فعدي يا صديقي إلى كتابك لتنتهي منه ، واجعل هذا الحديث على هامشه ، وأستودعك الله وأرجو لك النجاح والتوفيق .

قائمة الكتب التي أصدرتها دار الكاتب المصري

باشراف الدكتور طه حسين بك

الأدب والقصص الحديث

قلوب الناس ، قصص تحليلية ،
تأليف ابراهيم المصري .

قصص جديدة للكاتب المعروف
ابراهيم المصري يصور فيها بيئتنا
المصرية الحديثة في أسلوبه السهل
ال جذاب . الثمن ١٥ قرشا .

قطوف ، بقلم عبد العزيز البشري ،
مقدمة لطف حسين .

آخر آثار الأديب العظيم عبد العزيز
البشري جمعت في مجلدين يحتويان
أكثر من ٤٠٠ صفحة . اقرأ
« قطوفه » هذه فسترى في كل
فصل من فصولها مرآة مصقولة
صافية صادقة أدق الصدق للحياة
المصرية في عصر الانتقال .

طبعة في جزأين ، ثمن الجزء ٢٠ قرشا .

لقطة ، تأليف محمد عبد الحليم
عبد الله .

ال قصة التي نالت جائزة فاروق

الأول من مجمع فؤاد الأول للغة
العربية لما فيها من وصف دقيق لنفس
معذبة في أسلوب عربي متين رصين .
ال ثمن ٢٥ قرشا .

من حولنا ، قصص مصرية ،
تأليف محمد سعيد العريان .

جيل من الناس في أفراحه وآلامه ،
يرى كل قارئ في مرآته صورة من
نفسه ، أو صورة من حوله ، في
إطار قصصي رائع في بيانه وفي فنه .
ال ثمن ٢٥ قرشا .

على باب زويلة ، قصة تاريخية ،
تأليف محمد سعيد العريان .

كتاب من هذه الكتب النادرة
التي تظهر بين حين وحين ، القصة
التي نالت الجائزة الأولى لمجمع فؤاد
الأول للغة العربية عن أحسن إنتاج
قصصي لسنة ١٩٤٧ .

طبعة مزينة بالصور ، الثمن ٣٠ قرشا .

حكايات فارسية ، بقلم يحيى
الحشاش .

كتاب يحمل إلى قراء العربية عينا

رقيقا حسن الوقع في النفس من هذه
الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من
رقة وفطنة وفكاهة. الثمن ٢٠ قرشا.

من الأدب الفرنسي

جنة على نهر العاصي ، تأليف
موريس بارس ، تعريب محمد
عبد الحميد عنبر وعبد الحميد
عابدين .

غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات
أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر
العاصي حيث تملأ السواقي بأنينها
أجواز الفضاء . الثمن ١٨ قرشا.

غانية أطلنطا ، تأليف بيير بنوا ،
تعريب رشدي كامل .

لم تكن تبحث عن نشوة الحب
فحسب بل كانت ترمي كذلك إلى
أن تنتقم من الرجال ، فتقتلهم بحبها .
الثمن ٢٥ قرشا .

كليمنصو وحياته العاصفة ،
تأليف ليون دوديه ، تعريب
حسن محمود .

كليمنصو ... مسقط الوزارات ...
النمر ... الرجل الذي عاش حراً
فأصبح مغلولاً ... الرجل الذي
طلب أن يدفن واقفاً في القبر ...
زعيم في السياسة بقلم زعيم في الأدب .
طبعة مزينة بالصور ، الثمن ٣٥ قرشا .

الباب الضيق ، تأليف أندريه جيد ،
تعريب نزيه الحكيم ، مع رسالة
من أندريه جيد إلى المترجم ورد
طه حسين على أندريه جيد .
الثمن ١٨ قرشا .

أوديب — ثيسموس ، تأليف
أندريه جيد ، ترجمة طه حسين .
« علمتهما العربية ليلغا إلى قراء
الشرق رسالتك التي هي ثقة وشجاعة
واستبشار . » الثمن ٢٥ قرشا .

مدرسة الزوجات — روبير
— چنقييف ، تأليف أندريه جيد ،
تعريب صبرى فهمي .

فتاة في نشوة الحب ، ثم زوج في
يقظة العقل تتهم زوجها ، دفاع
الزوج عن نفسه ، رأى الابنة في
والديها . الثمن ٢٥ قرشا .

والدة ، تأليف فرنسوا موريك ،
تعريب محمد عبد الحميد عنبر
وعبد الحميد عابدين .

وصف دقيق لنفسية الأم حين تشعر
أن امرأة غيرها قد استأثرت بابنها
وصرفته عنها . الثمن ٢٠ قرشا .

عقدة الأفاعى ، تأليف فرنسوا
موريك ، تعريب نزيه الحكيم .
« لا لم يكن المال ما يحبه هذا البخيل
ولا الثأر ما يطلبه هذا المجنون .
أما هواه الحق فستعرفه إذا ملكت
القوة والجرأة على أن تصغى إلى هذا
الرجل حتى اعترافه الأخير الذى
يقطعه الموت . » الثمن ٢٠ قرشا .

وازن الأرواح ، تأليف أندريه
مورا ، تعريب عبد الحليم محمود .
هل توجد الروح ؟ وكم تزن ؟
هل يمكن الاحتفاظ بها ؟ وهل
يمكن أن تمتزج بعد الموت روحان
كائنا مؤتلفتين أثناء الحياة ؟
الثمن ٢٠ قرشا .

كولومبا ، تأليف بروسير ميريميه ،
تعريب محمد غلاب .

قصة فتاة من أهل جزيرة كورسيكا
تلك الجزيرة التى لازالت تعترف

بالعواطف الفطرية الأولى وتدين
بقانون الحب والانتقام .
الثمن ٢٠ قرشا .

أرض البشر ، للكاتب الطيار
أنطوان دى سانت أكسويرى ،
تعريب مصطفى كامل فوده .

« أرض البشر ، تلك الهباءة من
الثرى التائهة بين الاجرام السماوية
تلك الأرض الجديرة باعجابنا لأنها
وحدها تكون الرجال . »
طبعة مزينة بالصور، الثمن ٢٥ قرشا .

دير يارم ، تأليف ستندال ، تعريب
عبد الحميد الدواخلى .

قصة من عيون الأدب الفرنسى
يصف كاتبها الكبير دولة إيطالية
صغيرة ومغامرات بطل القصة
ودسائس وزيرها العجيب .

طبعة فى جزأين، بمن الجزء ٣٠ قرشا .
زديج أو القضاء ، قصة شرقية ،
تأليف فولتير ، ترجمة طه حسين .

مشكلة القضاء والقدر يعرضها
الفيلسوف الفرنسى فولتير فى إطار
قصصى جذاب .

عدد خاص من مجلة الكاتب
المصرى ، الثمن ١٠ قروش .

من الأدب الانجليزى

شبح كانترفيل ، تأليف أوسكار وايلد ، تعريب لويس عوض .
وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هذا القصر التاريخى إلى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سان چيمس .
فيها فكاهة متصلة مع براعة فى الوصف وفى الخيال .
طبعة مزينة بالصور ، المن ١٨ قرشا .

العالم الطريف ، تأليف أولدس هكسلى ، تعريب محمود محمود .
العالم فى المستقبل ... بعد أن يتحكم العلم ... وتتولد الأطفال فى المعامل !
المن ٢٥ قرشا .

طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض ، تأليف ه. ج. ولز ، تعريب محمد بدران .

قصة طريفة لذلك الكاتب الانجليزى الخصب الخيال الذى عرف بنبؤاته الغريبة عن الحروب ومخترعات العقل البشرية وتحققت أكبر هذه النبؤات فى حياته . المن ٣ قرشا .

من الأدب الأمريكى

هيروشيما ، تأليف چون هرسى ، تعريب حسن محمود .

قصة تدمير مدينة هيروشيما بفعل قنبلة ذرية واحدة وما حدث لسكان هذه المدينة ، مشاهدات ستة أشخاص كانوا فى المدينة حين قذفت القنبلة ونجوا بأعجوبة من هذه الكارثة .

عدد خاص من مجلة الكاتب المصرى ، طبعة مزينة بالصور .
المن ١٠ قروش .

صورة دوريان جراى ، تأليف أوسكار وايلد ، تعريب لويس عوض .

قصة شاب جميل الطلعة يحتفظ بشبابه بينما تهرم صورة له وتظهر عليها كل العلام التى تنتاب المقبلين على اللهو والملذات .
طبعة مزينة بالصور ، المن ٣ قرشا .

من الأدب الروسى

المقامر ، تأليف فيدور دستويفسكى ،
تعريب شكرى محمد عياد .

قصة شاب مصاب بداء القمار لقى
من هذا الداء فى حياته شراً عظيماً
وهى قصة عنيفة تستأثر بقلب
القارئ وعقله . المن ١٨ قرشا .

قصة رجل مجهول ، تأليف أنطون
تشيكوف ، تعريب محمود الشنيطى .
من أبدع قصص أسير القصة
القصيرة وهى مثال كامل لفنه فى
بناء القصة وفى معالجتها .

المن ١٠ قروش .

الحب الأول ، تأليف إيفان
ترجنيف ، تعريب محمود عبد المنعم
مراد .

قصة ساذجة تصور قلب شاب
ناشئ يندفع إلى الحب فى غير
احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من
يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقته
أبيه . المن ١٥ قرشا .

من الأدب الألمانى

نابليون ، تأليف إميل لودفيج ،
ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي .
البطل الذى اكتشف لودفيج وراء
قناع بطولته محيا الانسان ، فتجلت
بطولته فى إنسانيته ، وفاقت كل
ما عرف إلى الآن .
طبعة مزينة بالصور فى جزأين ،
من الجزء ٥٤ قرشا .

فى الأدب القديم

كتاب البخلاء للجاحظ ، حقق
نصه وعلق عليه طه الحاجرى .
أثر من أعظم آثار الأدب العربى
يبعث من جديد فى طبعة منقحة
بالدقة التى يتبعها علماء هذا
العصر . قام بنشره طه الحاجرى
الذى تخصص فى أدب الجاحظ
وعلق عليه وشرح غامضه فأصبحت
هذه الطبعة أكبر أداة للباحثين .
٥٢ + ٦٨ ٤ صفحة من القطع الكبير ،
المن ١٠٠ قرش .

تأريخ قضاة الأندلس ، نشره
إ. ليفي بروفنسال ، أستاذ اللغة
والحضارة العربية بالسربون
ومدير معهد الدراسات الإسلامية
بجامعة باريس .
وثيقة عظيمة الخطر عن تاريخ
القضاء بالغرب الإسلامي في العصر
الوسيظ .

٢٤ + ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير ،
الثن ٧٥ قرشا .

في القانون والفلسفة

مدونة چوستنيان في الفقه
الروماني ، ألفه فقيه القياصرة في
قسطنطينية الامبراطور چوستنيان
ونقله إلى العربية إمام القضاة
في مصر معالي عبد العزيز فهمي
باشا ، أخرجته دار الكاتب المصري
في طبعة ممتازة وتجليد أنيق .

٢٨ + ٤٠٩ صفحة من القطع الكبير ،
الثن ١٥٠ قرشا .

العقيدة والشريعة في الاسلام ،
للمستشرق العظيم إجناس
جولدتسيهر ، نقله إلى اللغة

العربية وعلق عليه مجد يوسف
موسى المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الأزهر ، وعبد العزيز
عبد الحقي المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الأزهر ، وعلى حسن
عبد القادر دكتور في العلوم
الإسلامية ومدير المركز الثقافي
الإسلامي بلندن .

١٦ + ٣٨٨ صفحة من القطع
الكبير ، الثمن ٨٥ قرشا .

تاريخ الفلسفة الأوروبية في
العصر الوسيط ، تأليف الأستاذ
يوسف كرم .

وهو كتاب قيم فيه تفصيل واف
عن المذاهب الفلسفية في تلك
القرون في دقة تعبير مع طلاوة في
الأسلوب .

٨ + ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير ،
الثن ٥٠ قرشا .

عقلي وعقلك ، تأليف سلامة
موسى .

أوفى كتاب في علم النفس الحديث
يسلط آخر المعارف عن هذا العلم
بلغة واضحة ليس فيه جملة معقدة
أو فكرة مهمة تقرأه فتقف منه

على أسرار النفس البشرية وحركة التفكير .

٨ + ١٩٢ صفحة من القطع الكبير،
المن ٤ . قرشا .

الضحك ، بحث في دلالة المضحك ،

تأليف هنرى برجسون ، تعريب
سامى الدروبي وعبدالله عبدالدايم .

الكتاب الشهير الذى وضعه

الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون

ليدرس فيه الضحك كظاهرة

نفسية والمضحك وأنواعه المتعددة .

المن ١٥ قرشا .

في التاريخ والتراجم

سافونارولا ، الراهب الشائر ،

بقلم حسن عثمان .

صفحة من أروع صفحات عصر

النهضة الأوروبية كتبها مؤرخ توفّر
على دراسة ذلك العصر ، وهى حياة
شخصية غريبة قلما يوجد بمثلها
الزمان .

طبعة مزينة بالصور ، المن ٢٥ قرشا .

تربية سلامه موسى ، بقلم سلامه
موسى .

تاريخ حياة المؤلف باعتبار أن

الحياة تربية وتاريخ مصر فى تطورها

وانتقالها من القرن التاسع عشر إلى

القرن العشرين . المن ٢٥ قرشا .

البيت السبكي ، بيت علم فى دولتى

الماليك ، تأليف محمد الصادق حسين .

تاريخ عصر يتمثل فى تاريخ أسرة

بقلم عالم من أكبر العلماء .

المن ٢٥ قرشا .



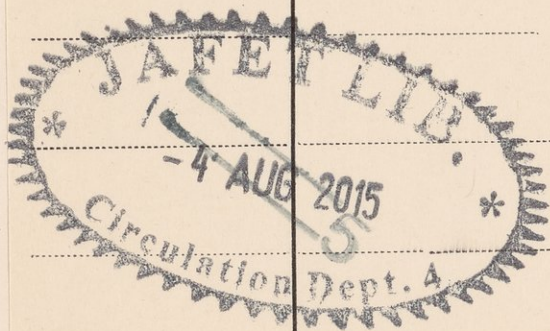
دار الكاتب المصرى قسم النشر باشراف الدكتور طه حسين . بك

٥ شارع قنطرة الدكة - القاهرة

DATE DUE

~~1 FEB 1975~~

~~JAFET LIB
2 APR 1983~~



892.78:A158Yaa:c.1

عزام، محمد عبده

ليال خمس مع ابي تمام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01041073

892.78:A158Yaa

عزام

892.78
A158Yaa

892.71
A158 1/2 A